العلم والحيـاة (٨٧)

صناع الحضارة العلمية في الإسلام

الجـزء الأول

بقـلم

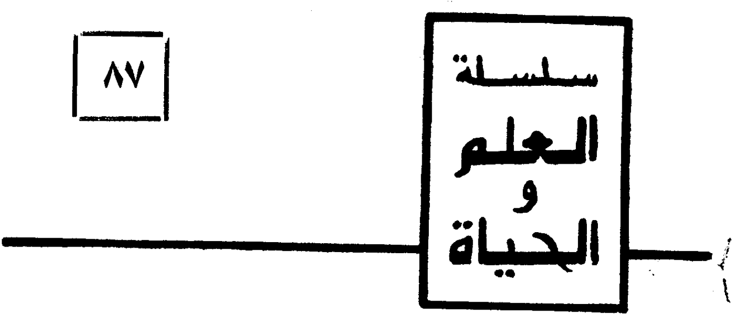
د. أحمد محمد عوف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٧

الاخراج الفنى والغلاف

محمـود الجزار


سلسلة
العلم
و
الحياة
٨٧

الاهـــداء

الى الأســتاذ الكبير عبد اللطيف فايد

نائب رئيس تحرير الجمهورية

فلولاه ما كان هذا الكتاب ·· عندما كلفنى بالكتابة عن هذه الشخصيات لنشرها كمقالات نشرت ·· فله منى كل التقدير ·

المــؤلف

المقدمـــة

من الجحود الحضارى أن نغمط دور الحضارة الاسلامية فى ركب الحضارة العالمية ، فهناك فرق بين حضـارة الاسـلام وحضارة الاغريق • لأن الحضـارة الاغريقية كانت حضـارة نظرية لكن الحضارة الاسلامية كانت حضـارة علميـة تجريبية وكانت معبرا حضاريا للحضارة الأوربيـة المعاصرة • فعلمـاء المسلمين قد قاموا بتصحيح العلوم والنظريات الاغريقية بعد ١٥ قرنا من الخواء الحضارى • وهذه الحقيقة التاريخية أكدها العالم البولندى (ليلويل) فى كتابه (جغرافيا العصور الوسطى) عندما أنصف العرب وأشـاد بانجازهم العلمى الضخم • فقال فى مقدمة كتابه بأن العرب صححوا كثيرا من أخطـاء الاغريق بما فيهم بطليموس نفسه • فالخرائط الجغرافية العربيـة ظلت متداولة فى أوربا حتى القرن الـ ١٥ • وضـاهى بين خرائط بطليموس فى كتابيه (المجسطى) و (جغرافية) وبين خرائط الادريسى وابن حوقل وغيرهما من الجغرافيين العرب •

ومنابع الحضارة الاسلامية ــ وخاصة الاتجاهات العلمية فيها ــ كانت تتمركز فى الشام عندما نهب الصليبيون المكتبات التراثيــة وفى صقلية عندما استولى عليها النورمانديون • وفى الأندلس بعد سقوطها فى أيدى القشتاليين وفى الهنــد عندما استولى البريطانيون على التراث الاسلامى المغولى هنــاك • وانبعثت فى أوربا مراكز للترجمة عن العربية لترجمة هذا التراث من المعارف والعلوم الاســلامية • وكانت مراكز الترجمة الى اللاتينية فى البندقية وجنوا وفلورنسا ومونبلييه بفرنسا وطليطلة بأسبانيا • وفتحت هناك مدارس لتعليم العربيــة لهذا الغرض ابان العصور الوسطى • وبدأت أوربا حضــارتها المعاصرة من حيث انتهى العرب المســلمون • لأن علوم المسلمين لم تكن صورة طبق الأصل من علوم الاغريق ولم تكن غثا علميا لكنها كانت كنوزا معرفية • أصالتها فى شتى العلوم التى ادعى الغرب استحداثها ونراها مثبتة فى كتب العلماء المسلمين وقد شرحوها وعلقوا عليها باسهاب وتطويل •

فأيام المــأمون قام علماء (بيت الحكمة) ببغداد بقياس محيط الأرض • وكانت مقاييسهم تكاد تطابق قياسات الأقمار الصناعية • وكان علماء بغداد قد وضعوا النظريات القياســية الدقيقة من رصــد وحسابات فلكية وجغرافيــة مذهلة • لأن بطليموس عندما وضــع كتابــه (المجســطى) كان قابعــا فى

الاسكندرية ولم يغادرها عكس الجغرافيين المسلمين الذين جابوا الآفاق أمثال المسعودى وابن حوقل والأصطخرى وابن خرداذبة وغيرهم • وهؤلاء رسموا خرائطهم عن مشاهدة وسجلوا عليها التضاريس والطرق والمسالك والممالك والبحار والخلجان والمحيطات تسجيلا دقيقا • لهذا نجدهم قد برعوا فى الجغرافيا الوصفية التى وضعوا أسسها • حتى أن الجغرافى الشهير (ليلول) فى أطلسه عندما قارن بين خريطة العالم بطليموس والخريطة المأمونية (رسم الأرض أو رسم الربع المعمور) وجد فروقا جوهرية علق عليها فى أطلسه الشهير •

وفى الرياضيات لعب الخوارزمى وعمر الخيام والبوزجانى دورا رئيسيا فى وضع علم (الجبر والمقابلة) وحلوا المعادلات الجبرية حتى الدرجة الرابعة وكانت هذه المعادلات من المبهمات لدى الاغريق • ووضع العالم الرياضى الأندلسى القلصاوى فى القرن الـ ١٥ الرموز الجبرية بعد ما كان الجبر عبارة عن كلمات وتعاريف وهذه الرموز ما زالت متبعة فى علم الجبر حتى اليوم مما سهلت فهمه ودراسته • ووضع الخوارزمى الحساب والأرقام • حتى نجد أن الرياضيات العالمية والحديثة لم تتحلل من التأثير العربى على علوم الرياضيات حتى اليوم •

وفى الفلسفة لم يأخذ فلاسفة الاسلام بالفلسفة الاغريقية عندما ترجموها أو شرحوها بل أخضعوها للمفاهيم الاسلامية

والقرآنية • حتى أصبحت فلسفة الكندى والفارابى وابن رشد وابن باجة وغيرهم نمطا فريدا بين الفلسفات العالميـة • لهذا أثروا على الفكر الفلسفى الأوربى فى العصـور الوسطى بل امتد أثرهم على الفـكر المسيحى الغربى الذى تبنـاه توماس الاكوينى والبرتس الكبـير ومارتن لوثر • وقامت حـركات اصلاحية وثورية فى الكنيسة للتصدى للفكر الاسلامى والفلسفة التى راجت فى أوربا •

فالحضارة الاسلامية لم تكن فصلا عابرا فى سجل الحضارة العالمية ولم تكن أيضا فلتة حضـارية لأنها قامت وزهت من خلال الحرية الفكرية التى كانت تسود العـالم الاسلامى • وكان حكام المسلمين أنفسهم علمـاء وأدباء وشـعراء وكانت مجالسهم وبلاطاتهم ملتقى الفكر والعـلوم • وكانت دكاكين النساخة منتشرة فى المدن الاسلامية وكانت القصور والمساجد ودور العلم وبيوت الحكمة بها المكتبات العامرة بالكتب ومزودة بحجرات للنسخ والاطلاع يقدم فيها الورق والأقلام والأحبار بالمجان • حتى أصبح فى الأندلس كما يقول (دوزى) لا يوجد أمى واحد بينما لم يكن فى أوربا من يعرف القراءة والكتابـة باستثناء طبقة الكهان • وهذه النهضـة العلميـة والتعليميـة والفكرية أزدهرت فى بلاد الاسلام لأن الحكام كانوا يعتبرون أنفسهم حماة العلم • لهذا أقاموا دور العلم وبيوت الحكمـة

وخزائن الكتب وأجزلوا العطاء للعلماء والشعراء والكتاب ليتفرغوا للفكر والمعرفة • لأن الرسول قد دعانا الى العلم قائلا : لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم أو متعلم •

والحضارة الاسلامية هى حضارة العرب لأن أى مسلم هو عربى والعلوم الاسلامية كتبت باللسان العربى • والمسلمون سواء كانوا أتراكا أو فرسا أو عربا أو أفارقة أو أندلسيين فهم كلهم عرب لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حدد مفهوم العروبة فى الاسلام بقوله : من دخل هذا الدين فهو من العرب •

وأوربا فى العصور الوسطى كانت تنظر الى العالم الاسلامى على أنه مهد الفلاسفة العظام والعلماء الأفذاذ ولاسيما عندما ترجم هناك التراث العربى الذى انبهر به الأوربيون بعدما انقشعت الصور القاسية التى كانت قد صورت الكنيسة فيها المسلمين بأنهم برابرة همج •

والعلوم المعاصرة لو تناولناها بنظرة تجريدية محايدة سنجد العلماء المسلمين فى الكيمياء كالبيرونى وابن سينا وجابر بن حيان قد قاموا باجراء التجارب ودونوا مشاهداتهم العلمية وحددوا الأوزان النوعية للمعادن والفلزات ، وفى الطب نجد أسهاماتهم وطرق علاجاتهم وفن تشريحهم وأدويتهم وآلاتهم الجراحية ظلت متداولة حتى القرن الـ ١٨ • وكان كتاب

(القانون فى الطب) لابن سينا يدرس بالعربية لأكثر من أربعة قرون فى كلية طب مونبلييه .

وانجازات ابن الهيثم فى الطبيعة وحديثه عن النظرية النسبية قد سبق فيها (اينشتين) . وفى العدسات سبق جاليليو . وابن خلدون يعتبر مؤسس علم الاجتماع عندما حدثنا عن فلسفة الجمال والعمران الاجتماعى ونظرياته فى قيام الحضارات فنراه قد سبق دوركهايم وموتتسيكو .

وفى الفلك نجد أن الجغرافيين والفلكيين المسلمين قد أكدوا فى كل كتاباتهم على أن الأرض كروية تدور حول نفسها قبل (كوبرتيق) الذى يعتبره الغرب أبا الفلك المعاصر . كما حدثونا عن الجاذبية الأرضية قبل (نيوتن) بعدة قرون . والبيرونى أكد على اتصال المحيط الهندى بالمحيط الأطلنطى قبل أن يكتشف (فاسكو دى جاما) طريق رأس الرجاء الصالح .

وأصدق وصف للحضارة الاسلامية ما قاله (كارليل) عن العرب بأنهم كانوا يضربون فى الصحراء وظلوا نكرة عدة قرون فلما جاءهم النبى العربى أصبحوا بتعاليمه قبلة الأنظار فى العلوم والمعارف وكثروا به وعزوا ولم يأت عليهم قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم .

وأخيرا .. فالحضارة الاسلامية أصبحت فى عقد الحضارة العالمية درة فريدة وكريسة بفضل عباقرة هذه الحضـــارة الذين أثروا وأثروا فى الفـــكر الانســـانى كله قبل عصر النهضـــة الأوروبيـــة .

ويسعدنى أن أقدم هؤلاء العباقرة . فكل منهم له فكره وعلمه رغم امكانياتهم المتواضعة وقتها الا أن انجـــازاتهم كانت مذهلة وستطالع معى عنهم ما كتبوه أو ألفوه أو أنجزوه وكأننا نطالع موســـوعة علمية معاصرة . فلقد سبقوا عصورهم وظل فكرهم خير شاهد على عظمتهم . ولا أفرط فى تأكيد هذا القول لأن الحقيقة دامغة وسنجدها بين ثنايا هذا الكتاب .

والله ولى التوفيـــق ،،،

د./احمد محمد عوف

أبــو حيــان التوحيــدى

فليســوف الأدباء وأديب الفلاســفة

أبو حيان احتــار المؤرخون والكتــاب فى أصل تسميته بالتوحيدى فمنهم من نسبها الى التوحيد أحد أصول المعتزلة وقالوا أنه نسبة الى تمر التوحيد العراقى الذى كان أبوه يبيعه فى بغداد •

لم ينل حظه من الدنيا أو الشهرة حتى بعد مماته • حتى أنصفه (ياقوت الحموى) فوصفه بأنه فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة وأســع الدراية والرواية • هذه ملامح شخصية التوحيدى وقد صورها ووصفها ياقوت بأبلغ وأدق وصف • واعتبره المستشرق المعروف (آدم متز) أعظم كتــاب النثر العربى على الاطلاق • واعتبره ابن الجوزى ظلما وافتراء أحد ثلاثة من الزنادقة مع ابن الراوندى وأبى العلاء المعرى • وشتان بين فــكر أبى حيان وفكرهمــا • لأنه كمــا قال عنه (ياقوت) صوفى السمت والهيئة • وأعتبره البعض أنه فارسى

الأصل لأنه سمى بالشيرازى لكن هذه التسمية كانت لأنه مات ودفن بشيراز عام (١٠٢٣ م/٤٠٤ هـ) رغم أنه كان عربيا بغداديا ومتعصبا للعروبة والاسلام وهذا ما نراه من مطالعتنا لكتابه (الامتاع والمؤانسة) عندما تصدىفيه للشعوبية الفارسية وأظهر محاسن العرب وعدد مآثرهم عندما اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ومن أخلاق البادية أطهر الأخلاق . لهذا كان منبوذا من أمراء ووزراء عصره لأنهم كانوا من الشيعة البويهيين وهم فرس .

والتوحيدى فى (الامتاع) نراه يتفوق على ابن خلدون فى تفسيره للحضارة وفلسفة التاريخ عندما وضع نظريته فى (الدورات الحضارية) التاريخية حيث قال : لكل أمة زمان على ضدها أى أن التفوق الحضارى لأى شعب لا يكون الا حقبة من الأزمان . لهذا وصف الحضارة الاسلامية التى قام بها العرب الفاتحون بأن مواهب كل أمة تكون بفيض من جود الله على جميع بريته وخلقه . وكل قوم فى اقبال دولتهم شجعان .

وكتاب (الامتاع) من الكتب التراثية التى مازالت متداولة حيث جعله حديث أربعين ليلة سامر فيها وزير صمصام الدولة البويهى عبد الله بن العارض وقائد الحرس ابن سعدان . وهذا الكتاب سياحة فكرية بعيدا عن الخيال . ورغم هذا فالمطالع لهذا الكتاب سيجده كاتبا ملتزما عبر عن ضمير مجتمعه

بصدق ونقل الينا صورة التراث الأدبى الشعبى والأمثال والعادات فى عصره ولم يراع فى أحاديثه الكلفة بينه وبين الوزير فعندما سأله رأيه فى العرب والفرس رفع من قدر العرب وفضلهم على الفرس رغم فارسية محدثه ولم يأبه لغضبه أو طرده من مجلسه •

لهذا نجد لرقى أبى حيان بالنثر الأدبى اعتبر (ماير هوف) أن كتب التوحيدى من روائع الأدب العربى • واعتبره المستشرق (جيب) قد احتل مكانا بارزا مع الجاحظ كعلمين للأدب العربى •

وفى (الامتاع) حدثنا عن فتنة العيارين (سفلة القوم) ببغداد عام ٣٦٢ هـ أيام الخليفة الطائع وحكم الملك عز الدولة البويهى للعراق • وقامت هذه الثورة ضد البويهيين الذين نعتهم بأنهم شذاذ الأرض وأفاقتها • وكان يوجه حديثه الى ابن سعدان قائد الجيش البويهى ببغداد • ووجه له الكلام قائلا : لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر سائس لم يفض الأمر الى هذه الشناعة • وهذه القصة لم يكن يجرؤ أى كاتب أن يكتبها فى كتاب فلم يخف سطوة البويهيين أيامه •

ورغم أن البويهيين كانوا يقدمون عطاياهم بسخاء الى الكتاب والشعراء لكن التوحيدى لاستعلائه على الفرس

وحكمهم ناله الفقر والاملاق • وعاش على النساخة ولم تكن مربحة له ببغداد بعدما صده وزراء عصره وكانوا من البويهيين الروافض •

وللتوحيدى كتابه (البصائر والذخائر) وهو من أمتع الكتب الأدبية وتناول فيه مع (الامتاع) الحديث عن الموروث الشعبى من الأطعمة فى مختلف العصور والأمثال الشعبية والصنائع ونوادر الصناع وأرباب الحرف وأخبار الناس والمغنيين • فكان كاتب (فولكور) شعبى • فنراه يصف طائفة (المخنثين) التى ظهرت فى العصر العباسى نتيجة امتزاج العرب بالفرس فشاع الفساد والخلاعة والمجون فى بغداد •

وعندما تناول الأطعمة العربية والفارسية استشهد بقول ابن ربيع عن الطعام فقال : الكباب طعام الصعاليك والماء والملح طعام الأعراس والهرائس والرؤوس طعام السلاطين والشواء طعام الدعار والخل والزيت طعام أمثالنا • وقال عن ابن سلمة : شيئان لا تشبع منهما بغداد السمك والرطب • وقال عن المأمون : خصلتان لا تصنعان على موائد الخلفاء نكت المخ وكثرة أكل البقل •

وحدثنا عن أحد الظرفاء كانت له جاريتان مغنيتان وكان اذا قعد معهما وغنته الحاذقة خرق قميصه واذا غنته الأخرى

قعد يخيطه • وروى عن أحد المزينين أنه كان يلقط البياض من شعر رئيس يخدمه فلما انتشر البياض قال له المزين : يا سيدى قد ذهب وقت اللقاط وحان وقت الصرام ، فبكى الرئيس •

ومن نوادر المجانين حدثنا عن أحدهم لما أبلغ عن سرقة حماره فرد قائلا : الحمد لله لم أكن تحته • وآخر أخذ رجل يضربه ، فقال له الناس : انه لمجنون • فرد عليهم من تحته قائلا : أفهموه •

وأبو حيان كان رائدا لعلم (الصوتيات اللغوية) عندما قارن بين اللغة العربية واللغات الأخرى • فلم يجد أنصع من العربية فى نقاوة وجرس عباراتها وتناغم حروفها ووضوح المخارج اللفظية فيها مما يجعل النطق بها واضحا متميزا • كما عبر عن الايقاع أو الجرس الموسيقى فى اللغة العربية وأشعارها بعبارات منها المساواة فى أبنيتها والمسافة التى بين مخارجها والفضاء بين حروفها والفرج فى كلماتها • وهذه العبارات يطلق عليها حاليا فى فقه اللغة بالتفاوت فى الجرس والتناغم فى الحروف والوضوح فى المخارج اللفظية • وكلها مصطلحات مستحدثة لكن أبا حيان عبر عنها بأسلوبه •

وأكد السيوطى أن كتب التوحيدى التى أحرقها فى أواخر حياته وقبل وفاته بأيام خرجت ونسخت قبل أن يحرقها • وكان قد أحرق كتبه حتى لا يتركها ــ على حد قوله ــ بين أيدى

قوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضه اذا نظروا فيها ويشتمون بسهوه وغلطه اذا تصفحوها ويلتمسون فيها أوجه العيب والنقض . لأنه اعتبر علة فقره هى العلم الذى (عاد كلا وأورث ذلا وصار فى رقبة صاحبه غلا) .

وكان دائما يناجى الله قائلا :

(الهى كل ما أقوله فأنت فوقه وكل ما أضمره فأنت أعلى منه فمن الجهل أن نصف الله سبحانه بغير ما وصف به نفسه) .

وبعدما خاض فى كل بحر وغاص فى كل لجة كما يقول عنه ابن القفطى . كان القبر عنده خير من الفقر على حد قوله .

أبـــو هـــريرة

راوية الأمـة وحافظ السنة وحجة الحديث

كان أبو هريرة رضى الله عنه حافظا للسنة النبوية ومحافظا عليها لأنه كان أعلم الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظهم عنه ، فقد سمع منه أكثر مما سمعوا • وكان كثيرون منهم قد سمعوا وحفظوا لكنهم نسوا ما حفظوه •

وكان أبو هريرة يسأل الرسول ويعرف منه الكثير حتى أبى بن كعب قال عنه أنه كان (جريئـا على النبى صـلى الله عليه وسلم يسأله عن أشياء لا يسأله غيره عنها) • ولقد شهد له الصحابة والتابعون بأنه كان أكثرهم حفظا لأحاديث الرسول فعدوه راوية ومحدثا ومثبتا ومرجعا لسنة رسول الله لأنه رآها رؤية عين فى الفترة التى لازم فيها النبى والتى قدرها بأربع سـنوات •

وأربعـة كان مشهودا لهم بأنهم محدثون عن الرسـول ورواة لأحاديثـه وسـيرته هم السـيدة عائشة أم المؤمنين

وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك وكانوا من الحفاظ أصحاب الحوافظ القوية .

وأبو هريرة هو عبد الرحمن بن صخر وينتهى نسبه الى قبيلة الأزد اليمنية وكنى بأبى هريرة . أعلن اسلامه فى يوم خيبر بعدها ظل ملازما الرسول متمثلا به فى صلواته ونسكه ومحياه وسلوكه وأعماله وتصرفاته . ورغم فقره كان عفيفا جوادا ورغم عوزه لم يبخل عن وجود أو يتكفف احسانا مؤثرا الجوع والحاجة على شبع البطن . فلم يقبل على عرض من أعراض الدنيا الا لفضل منه أو احسان عنه .

فلقد اختاره الرسول ليكون عريفا لأهل الصفة فى مسجده بالمدينة . وكان قد انقطع فيه للعبادة لا يسأل الحافا . وبعد وفاة الرسول جاب الأمصار ليحدث عنه ويفقه المسلمين فى الدين . فزار العراق والشام ودمشق والبحرين لأنه كان حريصا على نشر الحديث النبوى والتبليغ عن رسول الله للاقتداء بالرسول وبسنته المطهرة ثم استقر به المطاف بالمسجد النبوى بعدما انقطع بجوار الحجرة المشرفة يروى الأحاديث ويفتى المسلمين بما فيهم الصحابة الذين كانوا يرجعون اليه بأسئلتهم واستفساراتهم . كما كانوا يلجئون اليه بأسئلة السائلين ليجيبهم عليها عن علم ودراية . فكان أبو هريرة مرجعا للمسلمين

فى أمور دينهم وشريعتهم وكان يســتفتى فيفتى بما ســمع عن الرسول أو رآه .

وأبو هريرة صاحب ذاكرة قوية وحافظة للأحاديث النبوية والسيرة فكان حافظا عندما ينسى الصحابة لأنه كان كما قــال محمد بن عمر أحفظهم عن رسول الله وكان أكثرهم سماعا له . وكان فى حديثه عن الرسول يتوخى الحذر والحرص حتى أنه كان يضيق بمن يقول عليه القول بما لم يقله أو يحدث به . لهذا حافظ على أحاديث وسيرة الرسول .

وأبو هريرة كان يقضى ليله مجزءا ثلاثة فثلثه الأول كان للصلاة والثلث الثانى كان للنوم وثلثه الأخير كان يراجع فيه ما حفظه عن ظهر قلب من أحاديث الرســول حتى لا يسهو عنه وكانت هذه المراجعــة تثبيتا وتثبتا من الحفظ واستيعابا لمــا حفظــه .

وكان أبو هريرة حريصا وحذرا طوال حياته فنراه يســأل رسول الله قائلا : وأسألك علمــا لا ينسى . فأجابه صلى الله عليه وسلم داعيا له : آمين . وهــذا الدعاء والتقدير النبوى طمأن قلبه وفؤاده . وكان كلما حدث عن الرسول قال : حدثنى الصادق المصــدوق أو يقول : حدثنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم . ثم تخنقه العبرات فتسيل من عينيه لدرجة كانت تصرفه عن مجلسه لشدة حبه لرسول الله .

ويمتاز أبو هريرة بأنه كان محدثا بارعا تطمئن الى حديثه قلوب السامعين الذين كانوا فى شـوق بالغ لسماعه • فكان يعقد الحلقات ليحدثهم فيها وكان البعض يدون ما يقوله فيهم أو يلقيه عليهم • فنرى همام بن منبه وهو من التابعين قد جمع ما رواه أبو هريرة فى صحيفته (الصحيفة الصادقة) التى تعتبر من أهم الوثائق الاسـلامية والتى كانت من أوثق المصـادر للأحاديث والسيرة عندما أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينها • وكانت هـذه الصحيفة تضم ١٨٣ حديثا مرويا عن أبى هريرة الذى لم يكذب عن رسول الله حتى لا يتبوأ مقعده من النار •

ويعتبر أبو هريرة من العدول الثقات المشهود لهم بالتنزه عن الهوى والصـلاح والتقوى وهذا ما يجعل لمروياته قيمـة تاريخية • ولا سيما وأن سيدنا عثمان قد عينه مع ابن عبـاس وأبى سعد وجابر الانصارى ليتصدوا للفتيا فى المدينة • كما روى عنه أعلام الصحابة ومن بينهم أبو بكر وعمر وأسـامة بن زيد وعائشة أم المؤمنين وأنس بن مالك وغيرهم • وبعد موته عام ٥٧ هـ أخرج عنه أصحاب الصحاح والسنن والسير والمسانيد (جمع مسند) ومن بينهم مالك والبخارى وابن حنبل وداود ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأخذ عنه الأئمة الأربعة الكبـار فى مذاهبهم الفقهيـة سـواء ما كان يخص العقـائد

أو العبادات أو المعاملات وغيرها من أقسام الفقه • وكلهم قد استعانوا بما رواه أبو هريرة أو روى عنه من الفتـاوى التى جمعوها وضمنوها كتبهم التى لم تخلو من فتاويه أو أحاديثه •

رحم الله أبو هريرة وأثابه عما أقدم عليه حتى أصبح أول المحدثين والامام الثبت والمثبت لأئمة الحفاظ وأهل الأثر النبوى حتى يومنا هذا •

ابن ايــاس ٠٠٠
الشاعر والكاتب الساخر والمؤرخ الاخبارى

تنزه فى كتاباته عن شركسيته فأصبحت لها قيمتها التاريخية ولا سيما عن الفترة التى عاصرها وهى الفترة ما بين زوال دولة المـــاليك التركيـــة ودخــول العثمــانيين مصر لأنــه ولد عام ١٤٤٨ م/٨٥٢ هـ وتوفى عام ١٥٢٣ م/٩٣٠ هـ ٠ بعد دخول العثمانيين مصر بست سنوات ٠ فيعتبر شاهد عيان لهذه الفترة٠ فعده المستشرقــون الألمــان اخبــاريا لهذا نشرت جمعيـــة المستشرقين الألمــان عام ١٩٣١ كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وقدم له (باول كاهل) مقدمة بالألمــانية ٠

ويعتبر أحمد بن محمد بن اياس عمدة المؤرخين لعصرى المماليك ولاســيما عصر المــاليك الشراكســة وهم فى نزعهم الأخير ٠ لأنه فى (البدائع) صور أحوال مصر وأخبارها منذ بدء الخليقة حتى عام ١٥٢٢ م ٠ كما ضمن كتابه حوادث الدهور الأشعار والروايات ولم يتكلف فى كتابته بل سرد الحــوادث

والوقائع بطريقة وصفها (مارجيلوث) بالفردية واستقلال الرأى قلما يقر به فيه معظم المؤرخين • لأنه كان يعلق على الأحـداث ويصل الى الحقـائق • وكان الثقـات والخواص من الأمراء والكتبة فى دواوين السلاطين يدونه بالمعلومات • فكان يدون يوميا هذه الأحداث أولا بأول مصـورا الحيـاة السياسـية والاجتماعية والحياتية للقاهرة ومصر فى مطلع القرن السادس عشر • حتى نراه يعلق على ظاهرة حكم السـلاطين الضعاف والصبيان والأطفال منهم • فنراه يقول شعرا :

فـلم يقـم الا بمقـدار ان   قـلت له : أهلا اخى مرحبـا

وابن اياس كان ميسورا وعازفا عن الوظائف رغم أنه من الطبقة الحاكمة • وهـذا ما جعل لكتاباته مصـداقية لدى المستشرقين والمؤرخين • فنرى المستشرق الانجليزى (دافيد أيالون) يرجع الى (البدائع) عند كتابة بحثه بالانجليزية عن (البارود والأسلحة النارية فى مملكة المماليك • ونشر (فاييت) أجزاء منه بالفرنسية واهتمت عالمة الآثـار الفرنسية بالآثـار والعمائر التى وصفها ابن اياس فى كتابه • وأجمع المستشرقون على أنه كاتب ملتزم لم يزيف الوقائع وهـذا ما جعله يعبر عن آمال وآلام الشارع المصرى بصدق وأمانة • ويمتاز عن الجاحظ بأنه كاتب سياسى انتقد بسخرية حكام عصره ونقل فى كتابـه التراث الشعبى الذى كان ينتقد الحكام والأمراء نقدا مريرا ولم يداهن سلطانا أو أميرا فيه • فنراه يسجل أهازيج الشعب ضد

الملك الأشرف برسباى لتفشى الغلاء • وكانت هذه الأهازيج والأزجال الشعبية يتداولها الشعب متندرا بحكامه • ولما كانت تبلغ أسماعهم كانت بمثابة عرائض احتجاج لسوء الأحوال أو للغلاء والضرائب الفاحشة • وكانت هذه الأزجال والنكات أقوم من المظاهرات السياسية والأمير (قوصون) الذى حاول الاستيلاء على السلطنة لما أعدم صنع له الحلوانية تماثيل من حلاوة العلاليق صوروه فيها وهو مشنوق ومسمر قال الناس بسخرية :

شخص قوصون رأينا   فى العلاليق مسمر
تعجبنا منه لما   جاء فى التسمير سكر

وسجل ابن اياس الألقاب الساخرة التى كان يطلقها العامة على سلاطينهم وأمرائهم ، وكانت هذه الألقاب تعبر عن حس ووعى شعبى ساخر • فهناك السلطان (قل له) وسلطان (ليلة) وسلطان (الجزيرة) والسلطان (يخشى باشا) وكلها ألقاب أظهرت أن السلاطين كانوا ألعوبة فى أيدى أمرائهم •

وعلق أيضا ••• على تفشى ظاهرة السلاطين الأطفال والصبيان فى عصر المماليك • فنقل سخرية الشعب المصرى وضيقه من هذه المهزلة السلطانية قائلا :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر فى   خلف وبينهم الشيطان قد نزعا
فكيف يطمع من مسته مظلمة   أن يبلغ السؤل والسلطان مابلغا

فالمطالع لبدائع الزهور يرى أن ابن اياس كانت كتاباته لها أبعادا اجتماعية مما يضعه فى مصـاف الكتاب العالميين أمثال ديكنز وهوجو وتشيخوف وتولستوى • لأنه صور بدقة نبض الشارع المصرى مما يجعله نمطا فريدا بين مؤرخى العصـور الوسـطى •

فنراه يصف الملك الأشرف بن الناصر بأنه طفل آلة فى السلطنة وهو فى يد وصيه (قوصـون) مثل العصفور فى يد النسور • فاضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية • وعصى النواب ووقع بينهم الخـلاف الذى عطل أحوال الرعية وألحق الأذى بها •

وكان بحق كاتب الشعب عندما نراه يخاطب السـلطان الأشرف قنصوه قائلا :

كم من أقاطع (اقطاعيات) أخرجهـا وما أنصف
وأطغـى الممـالك ذا يهجـم وذا يخطـف

واتنقد السلطان نقدا مرا :

فلما كف بصر السلـطان قانصـوه الغورى وجه له نقدا لاذعـا قـائلا :

سلطاننا الغورى غارت عينيه — لما اشترى ظلم العباد بدينـه
لازال ينظر أخذ أرزاق الورى — حتى أصـيب بآفـة فى عينـه

وصور النصف قرن الأخير فى دولة المماليك الشراكسة وبين الأسباب التى أدت الى تدهورها ومن بينها الفقر والفتن والقلاقل

التى قام بها عساكر السلطان ضده . حتى (كان الجنود يرجمون الأمراء بالحجارة من الأطباق ويكبون عليهم الماء المتنجس بالأقذار ويخطفون عمائم الفقهاء من الطرقات) .

وانتقد الحكام الظالمين الذين كانوا يتظاهرون بالتدين ويبنون الجوامع والتكايا للصوفية بالمال الذى جمعوه بطريق الظلم والعدوان والمصادرات فقال :

بنى جامعا لله من غير حله   فجاء بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها   فليتك لا تزنى ولا تتصدقى

وقال أيضا :

قد بلينا بامير ... ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم ... يذكر الله ويذبح

فكان ابن اياس بقلمه أحد من السيف ولا سيما عندما صور الفلاحين الذين كانوا يعانون من جباة الضرائب والأوبئة ونفاق مواشيهم ومحاصيلهم التى كانت تحصدها الآفات الزراعية وكان الآلاف يموتون من الطاعون والعربان يغيرون على القرى وينهبونها ويسطون عليها . ورغم الشدائد الكبرى كان السلاطين يسلطون الكشافين ليرهقوهم بجمع أموال الخراج ونفقة الحمايات للعربان والشياخة وقدوم الكشافين وعساكرهم وكان الخراج يفرض على الفلاحين ونسائهم وأطفالهم ويؤخذ مقدما عنوة بالضرب مع القبض على الرجال والنساء والشيوخ والأطفال .

وحدثنا عن ضريبة (المشاهدة والمجامعة) التى ابتدعهـا السلطان الغورى عام ٢٩١ هـ ليجمعها المحتسب من الباعة ى دكاكينهم والسوقة بالأسواق مما جعلهم يرفعون الأسعار ليوفوا حقها فقلت الأقوات وشحت . وهـذا جعل أغوات العسـاكر يجاهرون ويطالبون السلطان بالغائها وطلبوا منه بدل النفقـة عليهم لارتفاع الأسعار وابطال هذه الضريبة .

ووصف دخول العثمـانيين مصر عـام ١٥١٧ م وصفـا مأساويا فقال بأنها (المصيبة العظمى التى لم يسـمع بمثلهـا فيما تقدم من الأزمان . كانت الجثث مرميـة فى الطرقـات) ولمـا ظفر الفاتح بالسلطان طومنباى شنقه على باب زويلة أمام شـعبه .

وأخذ ابن عثمان يسفك ويقتل ويصادر الأموال وثروات مصر ومقتنياتها وآثارها وجمع العمال والصناع وكبار الأعيان والأمراء والقواد والقضـاة أكداسـا من السـفن ورحلهم للقسطنطينية .

ولابن اياس كتب أخرى كنسق الأزهار وعقود الجمـان وهو مختصر لتاريخ مصر ومرج الزهور فيه قصص الأنبيـاء والرسل وغيرها . لكن هذه الكتب لم تحظ بشـهرة بدائع الزهـور .

وأخيرا ... هـذه سيرة آخر مؤرخى العصـور الوسطى العظام . حيث صان التاريخ الاسلامى من الشتات .

ابن باجة

شيخ فلاسفة الأندلس وامامها فى الألحان

أحد الأئمة الثلاثة العظام فى الحكمة الأندلسية مع ابن رشد وابن طفيل . لقب بابن الصائغ لأن كلمة (باجة) بالقشتالية معناها الفضة . ورغم الفترة القصيرة التى عاشها لأنه مات بفاس عام (١١٣٨ م/٥٣٣ هـ) مسموما فى الثلاثين من عمره الا أنه أثرى الفلسفة الأندلسية وأصبحت له مكانته لدى الفلاسفة والعلماء الغربيين أو المعاصرين له . فنرى ابن البيطار يأخذ عنه الكثير فى كتابه (الأدوية المفردة) . ورغم أن كتبه قد اختفت ولم يبق منها سوى بقايا أثرت فعلا بشكل مباشر على الفكر الأندلسى والأوربى معا . وكان لابن رشد الفضل الأكبر فى نشر أفكاره عندما تناولها بالشرح والعرض فى كتاباته . وكان لدعوته بفصل الدين عن الفلسفة أثرها على فكر الفيلسوف (كانت) الذى نهج أسلوب ابن باجة واتبع أفكاره.

ولد أبو بكر محمد بن باجة بمدينة سرقسطة الأندلسية

عام (١١٠٦ م/٥٠١ هـ) وكان لظهوره كفيلسوف ايذان باحياء الفلسفة المشرقية بالمغرب العربى بعد موتها بالمشرق • ونهج منهج الفارابى وتخلى عن فلسفة ابن سينا • وشرح أرسطو شرحا مستفيضا وأخذ عنه ابن رشد شروحاته والكثير من كتاباته • وكان ابن باجة من المعارضين لفكر الغزالى ولا سيما فى نزعته الصوفية واعتبر مشاهدة الصوفية وهما وخيالا •

وضع ابن باجة نظرية (درجات المعرفة الثلاث) التى بين فيها المستويات المعرفية للانسان • فالبهيمى هو الذى يقوده هواه وتسيطر عليه انفعالاته • والانسان النظرى هو الذى يفكر تفكيرا نظريا • وصاحب العقل الكامل يدرك الأشياء عن طريق الحدس أى من داخل نفسه • وهذه المستويات الثلاثة نقلها بالنص الفيلسوف الهولندى الشهير (سبينوازا) فى فكره •

وفى كتابه (تدبير التوحيد) حدثنا فيه عن نظرية (الفرد المتوحد) الذى يعيش منعزلا على نور العقل • وهذه النظرية جعلت ابن طفيل يضع قصته الشهيرة (حى بنى يقظان) الذى كان منعزلا استطاع بعقله وفكره وبمفرده تعلم كل العلوم والصناعات وتوصل الى معرفة الخالق سبحانه •

ويقصد ابن باجة بالتدبير سياسة الناس عن طريق التأمل والمعرفة وترتيب الأفعال التى تحقق الغاية المنشودة عن طريق

التفكير الذى هو قاصر على الانسان وحده لهذا عليه أن يسلك مسلكا اليها كلما استطاع عن طريق التوحيد •

والمتوحد حسب فكره هو الانسان المنعزل أو المتفرد فى برجه العاجى يتأمل العلوم النظرية ليصل الى العقل الفعال (الله) • وفرق بين النشاط الحيوانى الذى يكون بدافع من الانفعال والشهوة وبين النشاط البشرى الذى يتم بدافع من التجريد العقلى • لهذا نراه يعتبر أفعال البشر ناشئة عن الارادة المطلقة والتفكير والتدبير • واعتبر أن الانسان قادر على تعليم نفسه بنفسه • كما ناشد العلماء أن يتبنوا ملذات العامة ونزعاتهم والعيش على الفطرة • وهذا ما جعل ابن طفيل فى قصته يجعل بطلها يهجر الجزيرة العامرة بالناس ويعود الى جزيرته ليعيش على هذه الفطرة • فنظرية (الفرد المتوحد) لابن باجة نسج على فكرتها ابن طفيل قصته •

والكتاب الثانى لابن باجة هو (رسالة الوداع) وهو رسالة أرسلها لصديق له بين بها أراءه وفلسفته ، ورفع فيها من قيمة العلم والفلسفة لأنهما فى نظره يهديان الانسان الى التعرف على الطبيعة من حوله ومعرفة نفسه • لأن غاية الانسان والعلم هى الايمان بالله والاتصال بالفعل الفعال الذى يفيض من الخالق عز وجل •

ولابن باجة وجهة نظر فى (الالتذاذ) الذى عبر عنه

ابن سينا والغزالى وانتقدهما فى رأيهما • لأن ابن سيناء رأى أن الالتذاذ (اللذة) العظيم فى انكشاف الأمور الالهية والاتصال بالملأ الأعلى والغزالى يراه فى الخلوة التى ينكشف فيها للانسان العالم العقلى فيرى الأمور الالهية • الا أن ابن باجة لم يقر بوقوع هذه اللذة من الأصل واعتبرها وهما وخيالا •

ومن أهم نظرياته نظرية (الجواهر المفارقة) وقد أخذها الغرب لأول مرة عنه واشتهرت بين فلاسفة العصور الوسطى وهذه النظرية الباجية بينت أنه من خلال دراسة العلوم النظرية العقلية بواسطة الصور التى تتعرف عليها من الأفكار يمكن الحصول على معرفة (الجواهر المفارقة) ويقصد بها الأجسام المتجردة عن الأجسام المحسوسة التى توجد فيها متجمعة • وهذه الجواهر المفارقة كانت قبلة تعتبر من الأمور الروحانية الغير محسوسة • لهذا نجد رسالته (الاتصال) قسم فيها الناس الى جمهور ونظار وسعداء • فالجمهور يدرك صور المعقولات بالنظر الى الموجودات المحسوسة ويربط بينها بينما النظار يتصلان بالمعقولات أولا ثم بالمحسوسات ثانيا وأطلق على هذا (الصور الروحانية) • أما السعداء فهم قلة جدا لأنهم يتصلون بالمعقولات مباشرة فيرون الشيء نفسه •

وكان ابن باجة موسيقى بارع له ألحانه التى اشتهرت وكان ينظم الأشعار والموشحات ويلحنها ويعزفها بعدما يلقن المغنيات

بالأغانى والألحان حتى شاعت ألحانه فى البلدان الأندلسية والمغربية وأسهم فى تطوير الموشحات وكان وزيرا فى سرقسطة وفاس الا أن هـذا لم يمنعه بعد أن يفرغ من عمله فى البلاط يقوم بتعليم الموسيقى وتلقين الغناء . وكان صاحب مدرسة فى الموسيقى والغناء خرجت موسيقيين لمعوا وبرعوا فى عصره . وكان يطلق على مدرسته (سوق الموسيقى) . ولما هاجر الى فاس أدخل التلاحين الأندلسية فى المغرب أيام المرابطين . حتى أن المقرى يصفه بأنه كان فيلسوفا مشبعا بالنظريات الفلسفية وله من العروض تصنيف مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الظيلية . فلقد وضع موشحة من تأليفه امتدح فيها والى سرقسطة ابن تافلويت فلما تغنت بها المغنيات أمامه صاح قائلا : وأطرباه ، ثم شق ثيابه وأقسم ألا يخرج ويعود الى داره الا سائرا فوق ذهب . فخاف ابن باجة من حساده فاحتال عليه ودق فى كل فردة نعل دينار ومشى به فوقهما ليبر بقسم مولاه .

وأصدق وصف لابن باجة ما قاله عنه ابن سعيد الأندلسى بأنه فيلسوف المغرب وامامها فى الألحان .

ابن بطوطة الرحالة الأمين

أهمية رحلات ابن بطوطة أنها تلقى الأضواء التاريخية على العالم الاسلامى الذى كانت حدوده السياسية بين أممه وشعوبه قد سقطت حتى أصبحت مفتوحة أمام كل مسلم يجوب ديار الاسلام شرقا وغربا من الأندلس الى تخوم الصين • وكانت القوافل التجارية تموج بينها • وهذه الرحلات كان يكتنفها المخاطر والمحاذير من قطاع الطرق وسوء الأحوال الجوية وانتشار الأوبئة ولا سيما الطاعون الذى كان يقضى على الآلاف بلا هوادة أو رحمة • لكن الاستعمار وضع القيود الحدودية بين الدول والشعوب الاسلامية خلال استعماره للعالم الاسلامى فى القرنين التاسع عشر والعشرين • وظلت هذه الحواجز السياسية المصطنعة قائمة حتى يومنا هذا •

ومما سهل لابن بطوطة القيام بهذه الرحلات حيث كان أثناءها خالى الوفاض بلا مال أو زاد أن أمراء وسلاطين المسلمين كانوا حريصين على انشاء التكايا والزوايا لنزول المسافرين

والأسبلة لايواء أبناء السبيل • وكان يقدم بها الطعام والشراب وأعلاف الدواب (الخيول أو الجمال) بالمجان • وكانت حماماتها مفتوحة بلا مقابل • وكان الحكام يتنافسون فى تقديم هذه الخدمات المجانية • وكانت رفادة الضيف الغريب عن الديار يتهافت عليها السلاطين والملوك والعلماء وعامة المسلمين فى كل مكان بالعالم الاسلامى كله •

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتى الطنجى عام ٧٠٣هـ ــ ١٣٠٤م بمدينة طنجة بالمغرب (مراكش)• ولقب باللواتى لأنه من قبيلة لواتة التى نزحت الى المغرب من برقة بليبيا • وقد بدأ رحلاته وعمره ٢١ عاما • ومات بطنجة عام ٧٧٠ هـ ــ ١٣٧٨ م عن عمر يناهز الـ ٧٤ عاما •وما زال قبره مزارا حتى اليوم •

رحلاته :

١ ــ الرحلة الأولى : (٧٢٥ هـ ــ ١٣٢٥ م : ٧٥٠ هـ ــ ١٣٤٩ م)

وهذه الرحلة زار فيها بلاد المغرب العربى ومصر والشام والحجاز والعراق وايران والأناضول (بتركيا) وآسيا الصغرى (بتركيا) واليمن والسند وسيلان (سرى لانكا) وجزر الهند الشرقية (ماليزيا وأندونيسيا) وجزر المالديف والصين • وعاد بعدها الى مدينة فاس بالمغرب •

٢ ـ الرحلة الثانية : (٧٥١ هـ ـ ١٣٥٠ م : ٧٥٢ هـ ـ ١٣٥١ م)

زار فيها مملكة غرناطة آخر ما تبقى للمسلمين من بلاد الأندلس ، وزار فيها بعض مدنها ، وكانت هـذه الزيارة وقت أفولها حيث سقطت عام ١٤٩٢ م على أيدى الأسبان •

٣ ـ الرحلة الثالثة : (٧٥٣ هـ ـ ١٣٥٢ م : ٧٥٥ هـ ـ ١٣٥٤ م)

زار فيها السودان الغربى (مالى) وبعض المدن الواقعـة على نهر النيجر وزار ـ أيضـا ـ مـدن فزار وكنجـاتى وتمبكو وتكدة •

واذا تحدثنا عن الرحالة أو الجغرافيين والمؤرخين فلابد وأن يبرز اسم الرحـالة ابن بطوطة ورحلته الخالدة التى تمتاز عن غيرها من الرحلات أنها تناولت الناس والتقاليد والعادات والحكايات الشعبية التى سمعها والأطعمة التى تناولها فى أرجاء العالم الاسـلامى • وهى أشبه ما تكون برحـلات السندباد البحرى وبقصص ألف ليلة وليلة الأسطورية • فعالم ابن بطوطة كما رآه ••• كان عالمـا يسوده السلام ما عدا فى بلاد الأندلس، ولهذا كانت التجـارة قد ازدهرت شرقا وغربا •

وابن بطوطة نراه قد تقابل مع سلاطين وأمراء وعلمـاء ، ورحلته تعتبر من أكبر الرحـلات التاريخية حيث اسـتمرت ٢٩ عاما قطع خلالها آلاف الأميال برا وبحرا ، وهذا ما أكسبه خبرة تجوالية وجعله أشهر سائح فى التاريخ •

وأول من اكتشف رحلة ابن بطوطة يوركهاردت وقد عثر على موجـز لها وترجمهـا عـام ١٨٨١ الى اللاتينيـة • وفى عام ١٨٢٩ م ترجمها القس الانجليزى صموائيل الى الانجليزية وقام المستشرقان الفرنسيان ديفرميني وسنجونيتى عام ١٨٩٣ م بترجمتها الى الفرنسية كاملة ، وصـدرت فى أربعة مجلدات • وأصدر (هـ • جب) موجزا لها بالانجليزية عام ١٩٢٩ م • ثم أصـدر لها (كاهاكليت) طبعـة كاملة عام ١٩٥٨ م بعنوان « كاهاكليت (على الاجتماع) » وفى ألمـانيا صـدرت الطبعة الألمـانية عام ١٩١١ م للمستشرق الألمـانى مزبك •

وقد أشاد الرحالة الشهير ستزن بابن بطوطة ورحلاته ، فوصفـه بالصبر والثبات والشجاعة والقدرة على الملاحظـة والدقة فى الكتابة •

وابن بطوطة فى رحلته نراه يحدثنا عن أمور قلما يلتفت اليها رحالة • وهذا ما يضفى على رحلته جاذبية وحيوية • فنراه يحدثنا عن جنازة فى الهند فيصفها بقوله عن أهلهـا بأنهم : يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة وتوضـع حوله الرياحين من الورد والنسرين (ورد قوى الرائحة) والياسمين• ويقام سرادق يجلس به القضاة والأمراء ومن يماثلهم • ويتلو كل مقرىء جزءا من القرآن بعدها يقوم القاضى ويلقى خطبة يذكر

فيها الميت ويرثيه شعرا ويعزى أقاربه ويدعو للسلطان • وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم الى سمت الجهة التى بها السلطان ثم يصب ماء الورد على القاضى ثم بقية الحاضرين • ثم يقدم ماء السكر والتانبول (نبات هندى يمضغ ورقه) وهم يعظمونه ويكرمون من يأتى لهم به • فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع • واذا مات الميت لا يأكل أهله التانبول الا فى ذلك اليوم • فيأخذ القاضى أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطيها ولى الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ •

وابن بطوطة نراه يقارن بين الأسعار فى مصر وبلاد المغرب فيقول : أن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمانى عشر أوقية بدرهم نقرة (سبيكة من الذهب والفضة) • والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب • وبالمغرب يباع اللحم ــ اذا علا سعره ــ ثمانى عشرة أوقية بدرهمين • وهما ثلث النقرة • وأما السمن فلا يوجد بمصر فى أكثر الأوقات •

كما حدثنا عن المساجد التى زارها كالمسجد الأقصى والمسجد النبوى والكعبة كما وصف لنا بعض الأضرحة التى رآها والأطعمة التى تناولها والطيور والحيوانات فى البلدان التى جاس بها وأشجار القرنفل والفلفل واللبان والعود الهندى والكافور والقرفة والنارجيل (جوز الهند) والبقم (شجر

خشبى سيقانه حمراء وأوراقه كأوراق اللوز) التى شـاهدها فى سيلان والهند وجاوة • كما حدثنا عن العملات الورقية فى الصين • ومعدن النحاس فى تكدة بالسودان الغربى والعجائب والغرائب والخوارق التى رآها أو سمع بها خلال تجواله •

ومعظم الكتاب الذين يعلقون على سفريات ابن بطوطة أجمعوا على أنه أعظم الرحـالة • فلقد فاق الرحالة البندقى ماركوبولو (١٢٥٤ ــ ١٣٢٤ م) فكلاهما زار الصين وكلاهما أملى رحلته على كاتب ليعيد صياغتها بأسلوب شيق • وكلاهما رماه السامعون لقصصهما ورواياتهما بالكذب والتهريل • لهذا لم يصدقهما أحد ممن عاصرهما •

وماركوبولو أملى رحلته عام ١٢٩٥ م وهو أسير فى جنوا حيث زار فيهـا الصـين وبورما ولاوس واليابـان وسيبيريا وأندونيسيا بآسيا وزنجبار بأفريقيا • ورحلة ابن بطوطة هى رحلات ما بين المحيطين الهادى والأطلنطى ، زار فيها بلدانا لم يزورها ماركو كالشام ومصر والهند وقرطبة بالأندلس والسودان الغربى بأفريقيا • وهذه البلدان قد جمع بينها الاسلام شرقـا وغربا • فتحفة النظار نظرة بانورامية واسعة للعالم الاسـلامى كما رآه ابن بطوطة • ونظرته لبلاد الصين تختلف عن نظرة ماركو لها فقد عاش هناك فى قصر الخان وعاشر رجال البلاط ولم يعايش الصينيين • فنرى ماركو يحدثنا عن القصر والبلاط

الصينى والحراس حوله بالتفصيل عكس ابن بطوطة فنراه يصف الصين وموانيها وحيواناتها وعادات أهلها وأحوال المسلمين هناك • وهـذا يمتع القارىء ويستهويه فى أدب الرحـلات • وحديث ابن بطوطة عن الصـين لم يكن بالجديد على التراث الاسلامى ، فلقد فتح أجزاء منها قتيبه بن مسـلم عام ٧١٥ م وأول من كتب عنهـا سليمان البصرى عام ٢٣٦ هـ ــ ٨٥١ م بعدما زارها فوصفها فى كتاباته • ولقد وصفها بعده المؤرخون والجغرافيون المسـلمون فيما كتبوه وكان وصفهم دقيقـا • فنرى المسعودى فى (مروج الذهب) والقزوينى فى (عجـائب المخلوقـات) وابن عبد ربه فى (العقد الفريد) وغـيرهم قد وصفوا الصين وتضاريسها وجغرافيتها ومسالكها ، وهـؤلاء كانوا جوالة لكنهم لم يركبوا البحر اليها كما فعل ابن بطوطة• لذا نراه يصف لنا هـذه الرحلة البحرية للصين وصفا لم يقم به غـيره •

وابن بطوطة عندما أملى هذه الرحـلات على ابن جزى أملاها من الذاكرة لأن مذكراته قد فقدت مع أمواله ، والمطالع لهذا الكم الهائل من الذكريات البطوطية ليدهش كيف تذكر كل أسماء المعالم والأماكن التى ارتادها وأسماء الأشخاص الذين قابلهم أو زارهم والأحاديث التى دارت معهم • فكأنه كان يروى له من كتاب مفتوح يطالع فيه •

فهذه الرحلات البطوطيــة مادة ثرية وخصبة لكل كاتب ومؤرخ وجغرافى عن تاريخ الرحــلات البحريــة والتجاريــة للغرب والمسلمين كما أنها مرجع لكل دارس للعلاقة الاسلامية مع الشرق الأقصى وشرق وغرب افريقيا ولتاريخ الامبراطورية المغوليــة .

فابن بطوطــة وعالمــه يعود بنا بالذكريــات الى القــرن الـ ١٤ لنطلع على أحوال أقوام قد رحلوا وشعوب قد غبروا ، وهذه السياحة التاريخيــة والأثنوغرافية تؤكد لنا مصداقيــة رحلات رحالتنا الخالد الذكر ، مما جعله أشهر رحــالة فى التاريخ الانسانى بلا منازع .

ابـن البيطـــار

شـــيخ العطـــارين

عالمنا كان متميزا فى النباتات والعقاقير الطبية سافر الى بلاد اليونان والروم والشـــام ومصر وفلسطين بحثـــا عن النباتات الطبية ومعاينتها ودراستها دراســـة مورفولوجيـــة • وهـــذه الدراسات المنهجية لها أهميتها فى علم العقاقير الطبية • لأنه كان يعرف النبات بشكله ولونه وطعمه • وكان يبين أماكن زراعته وتواجده • وكان دقيقا فى وصفه للنبات وصفا دقيقا وهـــذا كله أشياء متبعة حتى يومنـــا فى علم العقـــاقير وعلوم النباتات الحديثة • فنراه يذكر العقار وأسماءه المختلفة وشكله ومكوناته وطعمه ولونه وطرق غشه وأشباهه •

واعتمد ابن البيطار فى دراساته للعقاقير والنباتات الطبية على مشاهداته لها فى بلاد زراعتهـــا وعن كتب • وكان يجمـــع المعلومات عنها من كتب الرحالة الذين صنفوا هذه النباتات •

فنراه يفد الى مصر ويدرس نباتاتها مما جعل السلطان الأيوبى الكامل يعينه شيخا للعطارين ورئيسا للعشابين ٠

وأنشأ ابن البيطار متحفا خاصا به كان يحمله معه فى كل انتقالاته ويضم أنواعا مختلفة من العقاقير التى كان يناظر بهـا النباتات والعقاقير التى كانت تصادفه للتعرف عليها ٠ ولقد بهر ابن أبى اصبيعة عندما شاهده معه وكان من أحد تلاميـذه بدمشق ٠ وكان ابن أبى اصبيعة طبيبا مشهورا وقتها بالشام ٠

وضياء الدين ابن البيطار الذى ولد عام ١١٩٠ م/٥٧٥ هـ وتوفى بدمشق عام ١٢٤٨ م/٦٤٦ هـ ٠٠ من أصل أندلسى ولد بمالقـة لهذا كان يلقب بالمـالقى أو الأندلسى وكان قد سجل دراساته وأبحاثه عن العقاقير الطبية فى كتابه الشهير (الأدويـة المفردة والأغذيـة) حيث ذكر فيه أدويتـه وقواها العلاجيـة والشفائية ومنافعها ومضـارها وبين كيفيـة اصـلاح ضررها ومقدار تناولها سواء من ناحية جرمها (هيئتها) أو عصارتها أو طبيخها ٠ كما ذكر البدائل الدوائية لها ٠ وهـذا الكتاب ترجمه (لوكلير) للفرنسية عام ١٩٧٧ م ٠ تحت عنوان (الأدوية البسيطة) لابن البيطار ٠ وهذا الكتاب يعتبر فى عصره أكبر موسوعة خاصـة بالأدوية المفردة (العقاقير الطبيعة) لأنه وصف فيه وصفات ١٥٠ طبيبا و ١٢٠٠ عقارا ٠ وقام بوضـع دراسـة مقارنة بينه وبين ما كتبـه (دسيقور يدوس) و (جالينوس)

أبى الطب • كما قارن فيه بين ما كتبه العلماء العرب وغيرهم • وأضاف اليه الأدوية التى لم يكتبها الاغريق وكان عددها ٤٠٠ عقارا • وضمن الكتاب فوائد الأغذية الطبية وتحاشى فى الكتاب التكرار الا فيما يمس الحاجة لزيادة معنى وتبيان عقـار وقع فيم خلط أو غلط لمتقدم أو متأخر حسب قوله • لأن أكثرهم اعتمد على النقل • وقال بانه لم يترجم لدواء الا فيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة •

وفى الكتاب قام بترتيب العقاقير بوضع اسـمه العربى ومرادفاته باللغات الأخرى سواء أكانت بالعربية أو اليونانيـة أو الايطـالية أو الصينية أو اللاتينيـة أو الهندسيـة أو حتى باللهجات العربية أو العامية فى موطنه الأصلى • وكل هـذه المترادفات لها أهميتها فى التعرف على العقاقير الطبية بسهولة • وهذا ما جعل الألمـان يترجمون كتابه عام ١٨٧٠ الى الألمـانية وقام (كلارك) بترجمته للفرنسية • وطبعت منه أجزاء باللاتينية عام ١٧٢٨ م •

وعلق (رينالد ين) على كتاب ابن البيطار قائلا بأن العرب أعطوا من النباتات مواد كثيرة للطب والصـيدلة وهذه المواد انتقلت الى الأوربيين من الشرق كأعشـاب ونباتات طبيـة استعملوها • وقال (سيد يو) معلقا بأن العرب أضافوا موادا

نباتية كثيرة كان يجهلها الاغريق جهلا تاما .. وهـذا بفضـل ابن البيطار الذى شاعت شهرة كتابه فى أوربا مما جعل المستشرق (روسكا) يشيد بأهميـة كتاب (الأدوية المفردة) فى تقدم علم النباتات وهـذا ما جعل المستشرق الألمـانى (ماير هوف) يصفه بأنه أعظم كاتب عربى ظهر فى علم النباتات . وأصـدق وصف ما قاله عنه ابن أبى اصبيعة بأنه علامة وقته فى معرفـة النبات وتحقيقـه واختياره ومواضـع انباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها .

ابـن حـزم الأنـدلسى
شـاهد على عصـره

كان عالمـا فريدا فى حياته وفكره . لم يهدأ فى ثوراته ولم يهادن حكامه . دافع عن الاسـلام دون مواربة أو خوف فلم يهب قسـوة هؤلاء الحـكام الذين طغوا وبغوا فى كل واد بالأندلس . وكان مصلحا فريدا فى أسلوبه وسلوكياته ومنهجه . اتسم بالعنف الجدلى الذى لازمه ليوقظ قوما تحجرت قلوبهم وتغلقت عقولهم فى أفكارها .

ذلك هو الحافظ أبو محمد على ابن أحمد ابن سعيد ابن حزم القرطبى الظاهرى الذى ولد عام ٣٨٤ هـ ـ ٩٩٤ م وتوفى عـام ٤٥٦ هـ ـ ١٩٦٣ م . وقد وصـفه المؤرخ الأسـبانى (سانتشت البرنس) بأنه فليسوف وفقيه ولغوى ومؤرخ وشاعر وثائر وعالم نفس وأخلاق وسياسى . ووضعه فى مرتبة (دانتى) شـاعر ايطاليا والقديس (توماس الأكوينى) . والأسـبان

تجاهلوه عدة قرون حتى ترجمت بعض أعماله فى أواخر القرن الماضى ومطلع هذا القرن الى الأسبانية • فلما اطلع مفكروها على ما كتبه ابن حزم أعتبره الأسبان المعاصرون أحد مفكريهم العظام • وحاولوا ربط عبقريته بأصله الأيبيرى (الأسبانى) وتناسوا أن فكره كان اسلاميا خالصا لأنه كان فقيها ومدافعا عن الاسلام بكل قوة لديه وأنه كان من الجيل الخامس أو السادس من المولدين الذين أسلموا بعد الفتح الاسلامى للأندلس فى مطلع القرن الثامن • فلقد عاش ابن حزم بالأندلس بعد دخول الاسلام بها منذ حوالى ثلاثة قرون • بعدها اصطبغت فيها كل المجتمعات بشبه جزيرة ايبيريا بالصبغة الاسلامية العربية فى كل مناحى الحياة • فنراه فى شتى مراحل حياته أموى النزعة ومناصرا للخلافة الأموية المتداعية فى عصره بالأندلس • مما جلب عليه الدسائس لدى أمراء الطوائف فى ممالكهم ويعتبر هذا الجانب هو الجانب السياسى فى حياة ابن حزم لأنه كان كاتبا ملتزما وتربى فى بلاطها وقصورها عندما كان أبوه وزيرا بها • ثم عاصر ظهور عصر الطوائف التى قامت على أنقاض الخلافة فى عصره • فثار على الفتن التى اجتاحت بلاده مما جعله سياسيا مكروها لدى الحكام الجدد ودينيا ملفوظا من فقهاء عصره المالكى المذهب • ورغم هذا لم يلن ابن حزم بل ظل على مبادئه قائلا : (باذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت

بالحصى) • ودعا قومه ليبث فيهم الصحوة والنخوة الاسلامية متصديا لملوك الطوائف قائلا : (نوار الفتنة لا يعقد) • وفى كتابه (الأخلاق والسير فى مداواة النفوس) دعا مسلمى الأندلس الى بذل النفس (فى ذات الله عز وجل وفى دعاء الى حق وفى حماية الحريم • وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى وفى نصر مظلوم) •

ووصف ابن حزم متناقضات وتقلبات عصره وتعاقب الطوائف تلو الطوائف قائلا : (أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل • وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب (طاحونة هوائية) تدار بسرعة وتغيب طائفة وتبدو أخرى) • مما جعله يعتزل الوزارة والسياسة ويتفرغ للكتابة والعقيدة وتدريس المذهب الظاهرى فى بلدته •

وفى كتابه (نقط العروس) علق على الانقسمات السياسية الخطيرة التى أطاحت بوحدة الأندلس وأودت بالخلافة الأموية بعد قيام أربع خلافات أندلسية فى وقت واحد بالجزيرة ومالقة ويشتر وأشبيلية • فنراه يقول متحسرا : (أنها أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها • كلهم يتسمى بامرة أمير المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد) • ثم قال : (اللهم انا نشكو اليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن اقامة دينهم وبعمارة قصور

يتركونها عما قريب ، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم) • فدمغ بهذا حكام عصر بالكامل فى التهـاون بأمور الاسـلام • والمسلمون ـ كمـا يقول ـ (يستمدون النصـارى فيمكنونهم من حرم المسـلمين وأبنائهم ورجالهم • يحملونهم أسارى الى بلادهم وربما أعطوها المدن والقـلاع طوعا • لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه) • فكانت كتاباته مرثية لسقوط الأندلس فى الفتنة الكبرى التى اجتاحت المدن شرقا وغربا بلا هوادة ولا رحمـة بالاسـلام والمسلمين لأنها كانت مستسلمة لقدرها المحتوم • فلما رأى ابن حزم عقد الأندلس ينفرط ويتناثر الى دويلات صغيرة فما كان عليه الا أن تصدى لهذا السيل المنهمر من المـآسى والفتن • فكان يرد على سائليه عن هذه الفتنة بقوله : (هذا أمر أمتحنا به • نسأل الله السلامة وهى فتنة سوء أهلكت الأديان) •

واشتهر ابن حزم بكتابه (طوق الحمامة) وهـذا الكتاب نال شهرة عالمية بعدما اكتشفه المستشرق الهولندى (رينهارت دوزى) فى جامعة ليدن فى هولندا • وهـذا الكتـاب تضمن اعترافات ابن حزم فى الحب ودراسـة عن العشـق والحب العصرى • ويعتبر الأسبان الى اليوم كتاب ابن حزم (طوق

الحمامة) درة الأدب الأسبانى عامة والأدب الأندلسى خاصة ٠ لأنه دراســة نفسية للطبائع البشرية فى الحب ودواعيه والمعاشرة والوصل ومتعته والنفس ونوازعها والحزن وأسبابه والتضحية والصبر ٠ وفيه من المواعظ والعبر فى قصص المحبين ما يجعل قراءته ممتعة ولا سيما وأن الكتاب قد تناول ما كان يدور وراء أسوار الطبقــة الأروستقراطية الأندلسية التى ينحــدر منهــا ابن حزم ٠ ويعتبر (طوق الحمامة) من الكتب الوصفية لطبقات المجتمع بقرطبة الأندلسية أيام العصر الأموى ٠ وقد ألفه وعمره ٢٨ عاما وما جعله يكتسب خبرة ودراية أنه عاش ونشأ وسط حريم قصر أبيه ٠ فنراه يحلل طبيعة المرأة تحليلا عن دراية وبينة لأنه درس طبائع النساء عن كثب ووقتها كان عضــوا بجماعــة (حب الجمال) بقرطبة وكانت تضــم شباب صفوة المجتمــع القرطبى وكان أعضــاؤها محبين للأدب والفنــون الجميــلة والموسيقى ٠ والكتاب ترجم (دوزى) قصصه الى الفرنسية وعلق عليه فى كتابه (تاريخ مسلمى الأندلس) فوصف ابن حزم بأنه شاعر أكثر عفة ولا سيما عندما وصف حبه الأول ٠ فنراه يصف محبوبته وهو يستمع اليها تضرب بعودها وتغنى قائلا : (فلعمرى لكأن المضراب انما يقع على قلبى ٠ وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه الى يوم مفارقة الدنيا ٠ وهــذا أكثر ما وصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها) ٠

وكان القس الأسبانى (آسين بلاسيوس) قد علق على كتاب (طوق الحمامة) فى مقدمة ترجمته لكتاب ابن حزم (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) فوصف الحب من منظور ابن حزم بأنه حب رومانتيكى أو أفلاطونى وهو نموذج للحب الروحى العفيف . وقد وصفه الفيلسوف الأسبانى الكبير (أورتيجا) بأنه أروع ما كتب عن الحب العذرى فى الحضارة الاسلامية .

وكتاب (طوق الحمامة) عبارة عن اجابات عن أسئلة سألها لابن حزم أصدقاؤه ومعارفه عن أعراض الحب وأشكاله. وكان ممن سألوه وزراء وقواد وشخصيات وشعراء وفقهاء روى ابن حزم عنهم القصص العاطفية وكان يحترم خصوصياتهم ويخفى فى كثير من الأحيان أسماءهم .

وابن حزم لا يعترف فى كتابه بالحب من أول نظرة : (لأن مثل هذا الحب ضرب من الشهوة لا ينفذ الى حجاب القلب ولا يتمكن من صميم الفؤاد . فالشهوة تسقط على المرىء مع أول نظرة والحب يحتاج الى زمن ومعاناة وفهم متبادل) . وقد سبق فى هذا التعريف الكاتب الفرنسى الشهير (أندريه موروا) فى كتابه (فن الحب) . وبين أيضا فى كتابه كيفية التراسل بين العشاق عن طريق الحمام الزاجل أو العجائز اللائى وصفهن بذوات العكاكيز وكن يدخلن البيوت والقصور بلا حجاب .

والحب فى نظر ابن حزم يتمكن من النســاء لأنهن (متفرغات البال الا من الحب ودواعيه والغزل وأسبابه والتآلف ووجوهه. لا شأن لهن غيره ولا خلقن لسواه) • كما اعتبر أن الصــورة الحسية ليست سببا فى الوقوع فى الحب فقد يقع دون توفر الجمال الحسى فى المحبوب أو على حد القول (الحب أعمى) • واعتبر كتاب (طوق الحمامة) اعترافات لابن حزم وهو شاب • أما كتابه (الأخلاق والسير فى مداواة الناس) الذى كتبه وقد شارف على السبعين عندما اعتزل الناس والحياة السياسية يعتبر اعترافاته فى خريف عمره • فبينما زفراته حارة فى كتابه الأول ، كانت زفراته حانقة فى كتابه الثانى لمـا آلت اليه بلاده الأندلس• وبينما كتب الأول بدموع العشق ممزوجا بمداد الحب ، كتب الثانى بدموع الأسى والحسرة مختلطة بمداد كتاباته • فكتاباه وثيقة تاريخية عن العصرين الأموى والطوائف وفى كليهمـا نطالع الثائر ابن حزم •

وابن حزم كان شاعرا منذ صباه • فله قصيدة قالها دون العاشرة جاء فيها •

اذا كتم المشـغوف سر ضـلوعه
فان دموع العين تبدى وتفضـح

اذا ما جفون العين سـالت شـئونها
ففى القـلب داء للغـرام مبرح

وكان الأندلسيون يعنون بتعليم أبنائهم منذ صغرهم ويحفظونهم القرآن والشعر • وهذا ما جعل ابن حزم شاعرا ملهما منذ نعومة أظفاره حيث كان يستمع الى شعراء عصره فى البلاط الأموى كل يوم والى المغنيات والمغنيين الذين كانوا يغنون القصائد والموشحات فى قصر أبيه أو قصر الخلافة • وكعادة شعراء الأندلس الذين استهوتهم الطبيعة الساحرة هناك نراه يميل الى وصف الطبيعة فى أشعاره كما أن كتابه (طوق الحمامة) تضمن الكثير من أشعار الحب والعاطفة التى ألفها فى مطلع شبابه •

وفى الفقه نراه مجددا للمذهب الظاهرى السنى الذى حاول جعله يحل محل المذهب المالكى مذهب أهل الأندلس • فنراه فى كتابه (فضائل الأندلس) يلقى الضوء على المذاهب الفقهية فى بلاده وكان وقتها اماما للظاهرية هناك • وهذا المذهب أسسه بالعراق داود الأصفهانى فى القرن التاسع وهو أقرب الى المذهب الحنبلى الا أنه يتمسك بظاهر الكتاب والسنة لهذا سمى بالمذهب الظاهرى • كما يعتبر ابن حزم أن القرآن والسنة هما مصدران أساسيان للتشريع الاسلامى وهذا المذهب لم يستمر طويلا كما هو فى المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة حاليا • لهذا التزم ابن حزم بما فى القرآن والسنة ولم يكن مقلدا لأتباع أو أئمة المذهب الظاهرى نفسه • وكان

قد أظهر هـذا المذهب للتصدى لعلماء المـالكية فى قرطبـة والأندلس لأنهم شايعوا ملوك الطوائف • لهـذا كان يقول لمستمعيه : فلا تغافلوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشرشرهم الناصرون لهم على فسقهم) • بعدها تحرر من قيود الفقهاء المـالكيين المحافظين فى عصره • فواجههم بمناظراته ومساجلاته بلا كلل ولا ملل • وكان فى جدله صلبا قوى الحجة والبيان • وهـذه المناظرات أثرت فى الفكر الأندلسى وأثرته وطوته • وهـذا ما نراه فى فكر ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد من بعده • لأن ابن حزم كان عقـلانى الفـكر لهذا كانت له أبحاثه فى (الالهيات) شأنه فى هـذا شأن الفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم من فلاسفة المسلمين • وكان فى نفس الوقت يتفق مع الأشعرية فى بعض الآراء ويعارضهم فى آراء أخرى • فاتفق معهم فى اختـلاف الله عن المخلوقـات لكنه عارضهم فى جدليتهم حول صفات الله • لأنه من المفروض فى نظره أن تؤخذ أسماء الله الحسنى الـ ٩٩ دون استنتاج معانيها •

ونادى ابن حزم بالعـدالة الاجتماعيـة فنراه فى كتابـه (المحلى) قد بين أن الاسلام نادى بالتزام الدولة بضمـان حد الكفاية لا حد الكفاف لكل فرد • لهذا أقيمت فى صدر الاسلام (مؤسسة الزكاة) تقوم بالضمان الاجتماعى للمسلمين وكان

هذا الضمان حقا لكل فرد يعيش فى ديار الاسلام مهما اختلفت دياناته عملا بقوله تعالى « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .
وقد نشر الدكتور ابراهيم اللبان دراسة عن الفكر الاقتصادى عند ابن حزم تحت عنوان (حق الفقراء فى أموال الأغنياء) بين فيها مدى التزام ابن حزم فى نظرياته الاقتصادية بما جاء فى القرآن والسنة .

ودافع ابن حزم عن الاسلام بحق عندما وضع (فوكاس) امبراطور بيزنطة قصيدة ذم فيها الاسلام وأرسلها الى الخليفة العباسى المطيع ببغداد . فلما علم ابن حزم بها أرسل الى دار الخلافة قصيدة كشف فيها عن تناقض المسيحية وأشاد بالاسلام .

ويعتبر كتاب ابن حزم (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) أول كتاب وضع فى الأديان المقارنة عكس كتاب (الملل والنحل) للشهرستانى الذى كان كله وصفا للمذاهب والأديان. لهذا أثار كتاب ابن حزم عليه المسيحيين واليهود فتجاهله الغرب لعدة قرون . فلم تترجم كتبه الى أن اكتشف بعض المستشرقين بعضها فى أواخر القرن الماضى بعدها عده الغرب مفكرا عالميا من كبار المفكرين فى التاريخ الاسلامى كله .

وصنف ابن حزم فى كتابه (الفصل) الاعتقادات . ففى القسم الأول منه ضمنه الملل والنحل غير الاسلامية والقسم

الثانى تناول فيه الفرق والمذاهب الاسلامية ودحض فيه الأخطاء لدرجة أن المستشرق (شاخت) أطلق على الكتاب بأنه نارى العبــارات الصاخبــة فى الرد على المخالفين وبدعهم • وكان ابن حزم يدافع عن الاسلام عن ايمان وعقيدة ولاسيما عندما كان يحــاور العلماء وأهل الكتاب علانية • وشهدت قرطبــة ومرية وطليرة ومايورقة مناظراته المتأججة فكرا • وكان منهجه الفكرىألا يمتطى مطية ســواه ولا يتحلى بحلى مستعار • لأنه لم يكن مقلدا بل كان فعلا مجــددا فى الاســلام • فكان فى مناظراته الشهيرة يطلق حججه ليدمغ بها أباطيل خصــومه لهذا حاول المسيحيون واليهود والأشاعرة (سنة) والمــالكية طمس حياته لأنه عارضهم وهاجمهم فأخفى الأسبان طوال عصر الترجمة كتبه وحجبوه عن اللاتين نكايــة فيه لهجومه على المسيحيــة واليهودية • لكن الغزالى وابن عربى وابن رشد أشــادوا بفكر ابن حزم وعبقريته من بعده • وبعد ثمان قرون ظهرت أعمــاله فانبهر بها الغرب والشرق معا • وأصبح مفخرة للأســبان الذين أشادوا بعبقريته واعتبروه من أعظم عمالقة الفكر الانسانى كله بعدما بعث فكره من جديد •

وترجم كتابه (طرق الحمامة) الى الانجليزية والفرنسية والبولندية والأسبانية والايطالية واعتبر كما وصفته موسوعة (عبقرية الحضارة العربية) بأنه من المجددين فى مضمار الأدب

ومن اكثر الأندلسيين أصـالة فكر • واعتبر كتابه أول كتاب علمي في الحب وقد تأثر به (أندرياس كابلانوس) في كتابـه (فن الحب المهـذب) • ووصفـه (فيلب حتى) في كتابـه بالانجليزية (تاريخ العرب) بأنه أعظم مفكر أنجبته أسـبانيا الاسلامية وعده أحد ثلاثة من كبار مفكرى الاسلام • وأصدق وصف له ما قاله عنه أبو مروان ابن حيان معاصره من آنه كان (أكمل فتيان الزمان فهما ومعرفة ونفاذا في العلوم الرفيعة) •

وابن حزم أول من وضـع نظرية (المعرفـة) قبل أن يضعها الفليسوف الألمـانى (كانت) بعد عدة قرون • ووضع للمعرفة مبادىء ثلاثة هى :

١ ــ كيفية معرفـة الأشياء •

٢ ــ ما يعرف عن هذه الأشياء •

٣ ــ أدلة المعرفة لهذه الأشياء •

كما بين أن المعرفة تكون اما بالمشاهدة بالحواس وظواهرها أو باستخدام العقل من غير حاجة الى استعمال الحواس الخمس أو بالبرهان الذى يعتمد على شـهادة الحواس أو استخدام العقـل •

وفى كتابه (الفصـل فى الملل) بين أن غرض الفلسفـة والشريعة هو اصلاح النفس حتى تستقيم وتدخل دائرة السيرة

الحسنة المؤدية الى السلامة • و (تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية الى سلامتها فى المعاد • وحسن سياستها للمنزل والرعية • وهـذا نفسه لا غيره هو الغرض فى الشريعة • هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء فى الفلسفة ولا بين أحد من العلماء فى الشريعة) •

ولتخليد ذكرى ابن حزم أقام الأسبان له تمثالا أمام باب أشبيلية بمدينة قرطبة عام ١٩٦٣ • وكان هـذا الباب يؤدى الى الحى الذى عاش فيه ابن حزم • وكتب شاعر أسبانيا المعـاصر (انجل جراسيا لوبيز) على شاهد قبره قصيدة مرثاته قـال عنه فيهـا :

انى أكثر أصـوات الأندلس حياة •
انى اللحـن القـوى •
ما من أحد استطاع أن يخمد صـوتى •
ولا قدر أن يسمو بصـوته آفاق صوتى •
فاشـهروا صـوتى مثل خنجر جميـل •
واجعـلوا موسـيقاه ترتفع •
وأججـوا ناره •
فالمسـجد وشى صـوتى •
والجهد نسج للنهر من جسـدى •
غابـة خـالدة لا تفنى •
لم يكن لى من مآرب غير قـلبى •

لذا فانى أنظر اليوم فى مستقبلى .

هذا الملكوت السرمدى .

فالموت أيها الحساد لا يقوى على .

ان جسدى لهو الكلمة .

وأصدق وصف له ما قاله المؤرخ الأسبانى (سان تشت) عنه بأنه من كبار المفكرين وكبار الشعراء . واذا كان المعتضد أمير أشبيلية قد أحرق كتبه علانيــة الا أن ابن حزم رد عليه قائلا :

دعونى من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى

فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل ان نزل ويدفن فى قبرى

وأخيرا ... لقد صدق حينما قال :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

فحساده قد جنوا عليه فى حياته وبعد مماته الا أن سيرته بعثت من تحت ركام النسيان ليصبح اليوم عملاقا من عمالقة الفكر الانسانى كله .

ابـــن حوقـــــل

رحـالة وجغـرافى ومؤرخ اســلامى

امتدت رحلاته التى استغرقت ٢٨ عاما طاف خلالها بلاد البربر فى شمال افريقيا والأندلس الاسلاميـــة وجزيرة صقليـــة والعراق وفارس • لهذا نجد كتابه (المسالك والممالك) ثمرة هذه الرحـــلات عندما وصف الأقاليم الاسلامية التى زارهـــا والمدن الكبرى بها وحياة أهلها والخراج فيها وأنهارها وبحارها والمسافات بين هـــذه المدن وطرق القوافل التجـــارية الكبرى وآثارها • كما حدثنا عن أخبارها • ويتميز كتابه بأنه تضـــمن رسم الحدود السياسية لكل اقليم وخريطته التى وضع عليهـــا التضاريس والجبال والصحارى والسهول ، حيث بين فى خريطته أن مملكة الاسلام (الدولة العباسية) تبدأ من حد فرغانه شرقا الى خرسان والجبال وفارس والعراق وديار العرب حتى سواحل اليمن • وطولها مسافة خمسة أشـــهر ووقته كانت المسافـــات البعيدة تقاس بمدة السفر •

وكان ابن حوقل يقيم عدد السكان بكل اقليم عن طريق حصر عدد المصلين بالكنائس والمساجد بكل مدينة كان يحل بها • وانفرد عن غيره من الجغرافيين بأنه انفرد برسم خرائطه دون تقليده لغيره أو اتباع أسلوبهم واشتغل فى رسم هـذه الخرائط خبراته ومشاهداته فى رحلاته •

وكان أبو القاسـم محمد بن حوقل قد بدأ رحلته عـام ٩٤٣ م ـــ ٣٣١ هـ وتقابل فيها مع العـالم الجغرافى الشـهير (الأصطخرى) • وأراد من خلال رحلاته آلا يأخذ علمه من أفواه الناس أو ربمـا قرأه • بل أراد أن يأخـذه كما قال : « عن عينه ومشاهداته » •

فنراه يحدثنـا عن (صقلية) الاسـلامية • فصـورها تصويرا دقيقا وبين أن بمدينة (بلرم) العاصمة حوالى ٢٠ مسجدا ولا يوجد مثل هـذا العدد فى أى بلد من البلدان الكبار • وأوعز هذه الظاهرة الى أن (القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصـور عليه لا يجب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته) • ولاحظ كثرة المدرسـين هناك الا أنهم كانوا جهلة والسبب أن صقلية منذ الفتح ظل الجهاد بها قائمـا والنفير دائما (ولم يكن يعفى من الجهـاد الا المعلمون أو من بذل الفدية عن نفسه أو تخلف مع رابطـة السلطان • فكان من السهل أن من يخشى لقاء العدو أن يتخذ

التعليم حرفة له) • رغم أن مهنة التعليم لم تكن تدر عائدا مجزيا لصاحبها • وكان كل كتاب يدرس فيه خمسة معلمين ولهم رئيس • ووصف أهل الرباطات على شواطىء الجزيرة بأنهم أهل انحلال وفساد ورأى خروجهم على مبادىء الخلق الاسلامى والعقيدة واللغة كسمة فيهم •

ووصف العاصمة (باليرموا) بأن سورها كان من الحجارة وهو سور مانع وشامخ • وكان الحديد المستخرج من المناجم يصنع منه مراكب السلطان وجزء من أوراق البردى محتكرا لعمل الطوامير السلطانية • ولما دخل جزيرة صقلية وجدها قد تحولت من الخصب الى الجدب لوجود الفتن • فلم يهتم الأهالى بمحاصيلهم الا (بلرم) فكانت عامرة بالبساتين والطواحين • واشتهرت صقلية بثيابها الكتانية والقمح والصوف والشعير والخمر • ووصف أسواقها وبين أن لكل حرفة سوقها الخاص بها • ووصف أسواق القمح والعطارين والخبازين والطرازين والبزازين وغيرهم ••• وكانت الأراضى السبخة قرب (بلرم) مزروعة بالقصب الفارسى وخلال أرباضها بقاع غلب عليها نبات البربير (البردى) الذى كان يفتل منه الحبال للمراكب ويصنع منه الطوامير للكتابة • وكان من دراسته الواعية لصقلية أن كتب عنها كتابا منفصلا ذكر فيه محاسن أهلها ورذائلهم • فوصف طائفة (المشعمذين) هناك وهؤلاء

كانوا منتشرين بين أهالى الحصـــون والقلاع والضياع ومنهم الموالى والعبيد • فكانوا يتزوجون من النصارى • فلو ولد لهم ولد ذكر لحق بأبيه المشعمذ أما الأنثى فتصبح نصرانيـــة على دين أمهـــا • وهؤلاء لا يصـــلون ولا يتطهرون ولا يزكون ولا يحجون وليس فيهم من يصوم رمضان أو يغتسل من جنابة ورغم كثرة المساجد فهم لا يصلون • وأيام حوقل اشتدت المجاعة بالجزيرة بعد ما ضربت قلاعها وبواديها •

أما الأندلس الاسلامية فزارها ابان حكم الخلافة الأموية وفى العصر الذهبى لقرطبة العاصمة • الذى أشـــاد بجمـــالها ونظافتها • ووصف الأندلس قائلا « ومن أعجب أحوال هـــذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبســـالة » •

وهذا الوصف وان فيه تحامـــلا على الأمويين لصـــالح الفاطميين الذى كان ابن حوقل عميلا لهم الا أنه وصف الأندلس من الناحية الجغرافية الطبيعية والاقتصادية وصفا دقيقـــا لأنه وصف قرطبة بأنها عامرة ومزدهرة اقتصاديا وماليا • حتى أنه أطلق عليها (بغداد الثانيـــة) ولاسيما عند اعجابه بضاحيتهـــا الملكية الرصافة وقصـــورها الفخمة المنيفة التى اندثرت حاليا • وبين من ثروات الأندلس الزئبق والحديد والرصاص وأعجب

بصناعة الصوف والحرير وطرق صباغتهما بحشائش الأندلس •
وبين المشمع الواقى للمطر الذى كان يصنع هناك •

وفى شمال افريقيا وصف (برقة) بليبيا بأنها مدينة وسط ليست الكبيرة الفخمة ولا الصغيرة الزرية • وهى أول منبر ينزله القادم من مصر الى القيروان • وبها من التجـار وكثرة الغرباء فى كل وقت ما لا ينقطع وعابرون عليها مغربيون ومشرقيون لأنها تنفرد بتجارة القطران والجلود المجلوبة والمدبوغة من مصر والتمور الواصلة اليهـا • ووصف أهـل طرابلس بأنهم قوم مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأموال ويتميزون بالتجمل فى اللباس وحسن الصور والقصد فى المعاش •

وقسم ابن حوقل أقاليم الجزيرة العربية الى ثمانيـة هى تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن وبادية العراق وبادية الجزيرة (ما بين الرافـدين) وبادية الشـام • ووصف مكة والمدينة وصفا دقيقا •

وحدثنا عن بلاد الروس بأنه لم يسمع أو يذكر أنه دخلها مع الغرباء • وأنهم ينحدرون مع المـاء (نهر الفولجا) ويتجرون ولا يخبرون من أمرهم ومتاجرهم ولا يتركون أحد يصحبهم •

وكتاب (المسالك والممالك) يعتبر من كتب الجغرافيـا الوصفية والتاريخية وهـذا ما جعل المستشرق (دوزى) يعنى

به ويترجم ما كتبه ابن حوقل عن بلاد الأندلس ليستفيد به فى كتابة تاريخ المسلمين وهناك . واهتم المستشرقون والجغرافيون الغربيون بخريطة العالم التى رسمها بالكتاب وبين فيها المحيط الهندى ونهر النيل وبحر الروم (الأبيض) ودولة البيزنطيين وايطاليا وبلاد السند وقسم العــالم فيها الى سبعة أقاليم هى اقليم الهنــد واقليم الحجاز والحبشة واقليم مصر وافريقيــا والاقليم الرابع بابل والعراق والخامس بلاد الروم والســادس يأجوج ومأجوج والسادس يوماريس والصين . واهتم المستشرق (أمارى) بما كتبــه عن جزيرة صقلية . وترجمت كتاباته عن شمال افريقيا عام ١٨٤٢ للفرنسية . وقام (دى خوييه) بدراسة جغرافية ابن حوقل ونشر عنها كتابا عام ١٨٧٣ م .

ولابن حوقل كتاب آخر سماه (صورة الأرض) عنى به المستشرق (كرايمر) وطبعه عام ١٨٣٨ بلندن .

فابن حوقل كان فى كتاباته ذاكرة تاريخية واعية ولا سيما وأنه صــور الحياة وملامح المعيشة فى عدة بلدان اســلامية منها القاهرة والاسكندرية والموصل ودمشق وفلسطين والأردن ووصف جزيرة مالطة وقبرص والبصرة وبغداد . مما يبين مدى الجهد الذى بذله هــذا الجغرافى وهذا ما جعل لكتاباته قيمة تاريخية وتراثية .

ابـــن خـــــلدون

فليسوف الجمال ورائد علمى الاجتماع وفلسفة التاريخ

شخصية فريدة بين عباقرة الحضارة الاسلامية ، ولا يهمنا من سيرتها سوى أن صاحبها عالم اجتماع من الطراز الأول له نظرياته فى علم الاجتماع العمرانى والتحضر وواضـــع نظريات علم الجمال الذى يتناول الفنون وعنـــاصر الجمـــال والادراك الحسى والوجدانى •

ويعتبر كتابـــه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وثيقـــة تاريخية عن تاريخ المغرب وحكم بنى الأحمر ودورهم فى افريقية والأندلس ، وعن حكم بنى الأغلب ولا سيما للمغرب وجزيرة صقلية • وفيه تناول تاريخ البربر وقبائل زناتة ودورهم فى شمال أفريقيا الاسلامى • وهـــذه كلها أعمال تكفيه ليكون عالمـــا بارزا فى أفق الحضـــارة الاسلامية بلا منازع رغم الدســـائس والمؤامرات التى لاحقته طوال حياته التى اتسمت بالترحـــال

والتنقل فى الأندلس وشمال أفريقية والحجاز ومصر والشـام عندما عاصر وشـاهد حصار (تيمور لنك) الرهيب لدمشـق وأسره له مع العلماء لكن حصافته وسعة حيلته أنقذته من براثن القائد المغولى .

واشتهر عبد الرحمن ابن خلدون بمقدمته التى تعتبر من أمهات الكتب التراثية لأنه تناول فيها أسس ومظاهر العمران والاجتماع وفلسفة التاريخ والاقتصـاد والسياسة والأخـلاق والعدالة . وتعتبر المقدمة فلسفة فى أصول الحكم والقضاء . ولقد صاغ (ميكيافللى) كتابه (الأمير) على منواله واتفق فى آرائه مع آراء ابن خـلدون الذى وضـع أهم نظريات فى التحضر والبداوة وفلسفة الحكم . وكان قد وضـع هـذه المقدمة الشهيرة لتكون مقدمة لكتابه (العبر وديوان المبتـدأ والخبر) ، حلل فيها موضوعات تاريخية واجتماعيـة وفلسفية وعلمية واعتبر فيها التاريخ من أهم العلوم لأنه تناول التاريخ من منظور تحليلى وانسانى وفلسفى . وحلل البيئات الاجتماعية من وجهة النظر السياسية عندما تعرض لأسباب ظهور الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما تعرض فيها للنواحى العسكرية كتنظيم الجيوش وأسباب الحروب . وتناول فيمـا تناوله النظريات الاقتصادية بما فيها التجارة والزراعة والصناعة كما تعرض للحركات العلمية والفكرية وللعمران البشرى . لهذا

نراه يعرف المؤرخ بأن يكون (ملمـا بعلوم كثـيرة فاذا كان لا يعرف الا رواية الأخبار كان هذا قاصا (قصاصا) وليس مؤرخـا) •

وابن خلدون له نظريته فى (فلسفة التاريخ) التى تبين الايقاع الزمنى ما بين قيام الدولة ونموها وتطورها ثم تدهورها وسقوطها ، ونظريته التى سبق الفيلسوف الايطالى (فيكو) الذى عاش فى القرن الـ ١٨ •• كانت تقوم على دراسة المـاضى للتنبؤ بالمستقبل وفهم الحاضر ، وشبه الحضارة بأنها تمر من (الطفولة ثم الصـبا الى الشيخوخة الى الموت) • وجعـل ابن خلدون لتاريخ أى حضارة عمرا محددا ، والتاريخ نفسه يقوم على أسس الدورات المرحلية قائلا بأن : الدولة لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال • وجعل متوسط العمر أربعين عاما ، وللدولة أعمار طبيعية كمـا للأشخاص ، وهـذا ما أكده الفيلسـوف (فيكى) فى كتابه (العلم الجديد) من أن المجتمعات تمر بمراحل معينة من النمو والتطور والفناء • لهذا نجد أن نظرية ابن خلدون كان لها أثرها على فكر الفلاسـفة الغربيين من بعده أمثـال (هيرد وهيجل وماركس وشبنجلر) •

وقـد حاكاه الفيلسـوف الألمـانى (هيجل) فى كتابـه (فلسفة التاريخ) وقد سبقه ابن خلدون بخمسة قرون بتحليله أسباب قيام وتدهور الحضارات والممالك فى مقدمته الشهيرة •

وأكد الفليسوف العربى ابن خلدون على أن (الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع) وعند أفولها بين أن هناك (قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة الخمود • كما يقع فى الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم أنها اشتعال) •

وبين أن من أهم ظواهر العمران البشرى أن أحوال الأمم وعوائدها لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر لأن (السبب الشائع فى تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه) •

وقد استمد عالم الاجتماع الشهير (اميل دوركهايم) من فلسفة ابن خلدون مفهوم العصبية واعتبره عنصرا أساسيا فى علم الاجتماع السياسى عندما اعتبر فليسوفنا العربى أن العصبية أهم عوامل التضامن الاجتماعى الذى يؤدى الى تكوين الدولة وتطورها وتحديد نظامها السياسى • فالعصبية عند ابن خلدون هى (الشعور بالتلاحم مع الجماعة والولاء الكامل لها • وتنشأ من توالد أواصر القرابة والنسب داخل القبيلة الواحدة ثم تتسع لتأخذ شكل الأحلاف أو الانتماء بين قبيلتين أو أكثر ، ولو استقرت الدولة فقد تستغنى عن النسب والعصبية) • وأوعز الانقسامات فى الدولة الى التنافس على

الرئاسة (فقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه فيتعدد الحكام بينهم والأمراء) •

فابن خلدون بنظرياته فى التطور الاجتماعى والتاريخى قد استعان بطريقة (الملاحظة بالمشاركة) التى تستخدم فى علم (الأنثروبولوجى) الذىوضعه العالم البريطانى (مالينوفسكى) وهذا ما جعل (كلنرير) يصف ابن خلدون بأنه عندما يقرأ له فانه يعيش فى نفس العالم الذى صوره الأنثربولوجيون والاجتماعيون • لهذا اعتبره أعظم عالم اجتماع لأنه وضع نظرية (التغير الاجتماعى) الرائعة •

واعتبر (لاكوست) مقدمة ابن خلدون عملا موسوعيا وتلخيصا عبقريا لتاريخ التراث الاسلامى • وأضاف قائلا : اذا كان (تيوديد) هو مخترع التاريخ فان ابن خلدون هو الذى جعل من التاريخ علما • لهذا لا يقارن الا بالمؤرخ الشهير (تيوديد) نفسه • لأنه عكس (هيرودوت) ولا سيما عندما نجد أن نظرياته فى النقد التاريخى تحاشت الشرح والتعليل وقبول الأحكام الاعتباطية ونقل الأخبار التقليدية والروايات التراثية أو الأسطورية • لهذا وصف المقرى كتاب ابن خلدون بالتاريخ الكبير لأنه انفرد فيه عن غيره من المؤرخين المسلمين المعروفين بحديثه المستفيض عن دولة الاسلام فى جزيرة صقلية وصور عصر الطوائف بالأندلس وقيام الممالك النصرانية هناك

وعلاقتهم ببني الأحمر بغرناطة . لهذا نجد المستشرق (دوزى) يصف روايات ابن خلدون عنهم بأنها لا نظير لها لأنه كان دقيقا فى كتاباته . فلقد دعـا المؤرخين الى الالتزام بصحة الخبر ليكون خبرا صادقا وطالب بتطبيق ما كان يطبق على الحديث النبوى من التعديل والتجريح على سند الخبر . وهاجم المؤرخين الأوائل لأنهم اعتمدوا فى رواياتهم على مجرد النقل أو السـماع لمـا نقلوه دون تمحيص أو الاسناد الى الأدلة والبراهين . وكان يعتمد فى كتابة أخباره على الوثائق التاريخية لأهميتها وتصفح أوراق الدواوين واعتمد على الآثار التى تظهر قوة الدولة .

وما كتبـه عن تاريخ (البربر) أعتبر أول دراسـة عنهم لأنه عايشهم وشاهد بعض الأحداث والقلاقل فى شمال افريقيا . لهذا ترجم المستشرقون الفرنسيون هـذا الجزء الى الفرنسية ما بين عامى ١٨٥٢ و ١٨٥٦ .

وكانت مقدمة ابن خلدون سببا فى شهرته رغم أنها أكتشفت فى عصر لاحـق لأنـه ولد عـام ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣٢ م وتـوفى عام ٨٠٥ هـ ـ ١٤٠٦ م . فلم يعاصر عصر الترجمـة للتراث الاسلامى الى اللاتينية . وظلت أعماله مهملة لأكثر من أربعـة قرون الى أن قام (دى سلان) فى النصف الثـانى من القرن الـ ١٩ بترجمة الجزء الخاص بالبربر من كتاب (العبر) وقام ـ أيضا ـ بترجمة المقدمة للكتاب . فاكتشف الغرب نظرياته الرائدة

فى العمران البشرى والتربية والتعليم فوضعه فى مصاف العلماء المبرزين أمثال لوك وملتون وروسو وبيكون وبستالوتزى وهؤلاء فلاسفة الاصلاح التعليمى فى أوربا •

ووجد أن آراءه تتشابه مع آراء سبنسر ودوركهايم وفيبر وتونيس وغيرهم فى نظرياتهم حول المجتمع والتضامن الاجتماعى والثقافة والتغير الثقافى والتنشئة الاجتماعية والضبط والايقاع الاجتماعى • واعتبر (سوروكين) مقدمة ابن خلدون أول وثيقة فى علم الاجتماع ولا سيما فى علم الاجتماع الحضرى والريفى واعتبره مؤسسا لهذا العلم وأطلق عليه أبا علم الاجتماع لأنه لأول مرة تدرس الظواهر الاجتماعية التى أدت الى صياغة القوانين الاجتماعية • وأيد هذا (الكين) عندما اعتبره سباقا فى علم الاجتماع لأن آراءه تتواكب مع المفاهيم الحديثة والعصرية فى هذا العلم • حيث تناول فى هذه المقدمة الجغرافيا البشرية والاجتماعية والعمران البشرى وتأثير الأقاليم على ألوان البشر وأحوالهم • كما تناول نشأة البلدان والأمصار وظهور الصناعات وتوزيعها على المناطق بالدولة •

والحقيقة تقال أن اسم ابن خلدون ظهر فى الغرب لأول مرة عام ١٦٣٦ عندمانشر (جاكوب جوليس) بلندن كتابه (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) وظهرت الترجمة الذاتية له فى عام ١٦٩٧ فى (دهير بلونت) وترجم (سلفستر دى ساسى)

عام ١٨١٠ أجزاء من المقدمة للفرنسية • وفى عام ١٨١٣ نشر (همربرجستال) مجلدا أشار فيه الى نظريات ابن خلدون فى تدهور الدول • ووصفه بأنه (مونستيكو) العرب كما قـام بنشر أجزاء من المقدمة بعد ترجمتها للألمـانية فى المجلة الآسيوية عـام ١٨٢٢ •

وكان ابن خلدون قد قسم علمه الجديد الى ست فروع رئيسية فى علم الاجتماع وهى :

١ ــ علم العمران البشرى وأجزاء العالم المتحضر •

٢ ــ علم عمران الصـحراء متضمنـا القبـائل والأمم الهمجيـة •

٣ ــ علم الاجتماع السـياسى متضمنا العهود والخلافـة والحكم المطلق للملوك •

٤ ــ علم الاجتماع الحضرى متضمنا العمران والمدن •

٥ ــ علم الاجتماع الاقتصادى تناول المهن وطرق عمل المعـايش •

٦ ــ التعريف بعلم الاجتماع ، وتناول فى هـذا الجزء العلوم واكتسابها ودراستها •

لهذا أجمع علمـاء الاجتمـاع على أن ابن خلدون رائد

علم الاجتماع والأنثربولوجيا البشرية وقد قارن (فيكو) فكره بفكر أساطين هذا العلم أمثال (دوركهايم ومونتسيكو) فأكد على أنه واضع نظرية الكمية التاريخية وهذا ما جعل (كولزيو وجومبلويز وشميدت وأينان ونشات) يقرون بأن علم الاجتماع كان موجودا قبل ميكافيللى وكومت وفيكو . مما جعل (أبيد) يقارن بين ابن خلدون و (فيكو) ، وأعتبره حرر نفسه من الخرافات والأساطير . كما أنه غير (جيان بودين) الذي توفى عام ١٥٩٦ لأنه لم يعتقد فى تأثير النجوم على مصائر الأشخاص والأمم والدول . لأن كتاباته كما يقول بيكر وبرنز تتميز بالتحليل الدقيق أكثر من مجرد السرد لوقائع الأحداث التاريخية وهو غير (سبنسر) لأنه لم يكن مشتتا أو تائها .

وابن خلدون تناول (عالم الجمال) ويعتبر رائدا من رواده ، وهذا العلم يتناول الابداع فى الموسيقى والشعر وبقية الفنون لأنه يرتبط بالتأمل والشعور واتصالهما بالتعبير وأكد على أن طالب الفن ينقل فى بدء دراسته عن أستاذه ثم يقوم بالتدريب وهذا ما يطلق عليه بالشف أو النقل عن الأصل . ووضع ابن خلدون نظرية فى الحس الانسانى وهى أهم نظريات علم الجمال . فنراه عند حديثه عن الروائح قائلا : وفى الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبى البخارى لأنه المدرك . لهذا كانت الرياحين ملائمة للروح لقلة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح

القلبى) لهذا نراه يفرق بين المتلائم من أنواع الطعام والملبس وبين الحضر والبدو لأن (الملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق فى مزاجها) وهذا القول يقابله فى علم الجمـال مصطلح التأثير • كما أنه اهتم بنظرية (المدرك والمدرك) فى علم الجمال عندما قال : (فاذا كان المرئى متناسـبا فى أشـكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادته الخاصـة من كمال المناسـبة والوضع وهو معنى الجمال والحس فى كل مدرك كان حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتتلذذ بادراك ملائمها) • وهذا التلائم بين (المدرك والمدرك) أطلق عليه (اتحاد المبدأ) كما فى العشق الصوفى عندما تمتزج أرواح العاشقين بالمحبوب •

وادراك الجمال عبر عنه بقوله (ولمـا كان أنسب الأشياء الى الانسان وأقر بها الى أن يدرك الكمال فى تناسب موضوعها هو شكله الانسانى • فان ادراكه للجمال والحس فى تخاطيطه وأصواته من المدارك التى هى أقرب الى فطرته • فيلهج (يعبر) كل انسان بالحس من المرئى أو المسموع بمقتضى الفطرة) •

ويقصد بالفطرة هنا (الموهبة) ، كما يقصد بالمسموع هنا الألحـان والموسيقى لأن علم الجمال يبين أن التـأثير مرتبط

ارتباطا وثيقا بالأنغام والموسيقى . لهذا لم يغفل ابن خلدون هذه الحقيقة فقال : والحسن فى المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة وذلك لأن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والقلقلة والضغط . وهذه التراكيب الصوتية للأنغام والتدرج الصوتى قد وصفه وصفا دقيقا بما يتوافق مع مفهوم السلم الموسيقى لأن (اختلاف هذه النسب عن تأديتها تخرج الى السمع من البساطة الى التراكيب) . وهذه النظرية هى أهم نظرية فى علم الجمال لأنها تتناول الادراك الجمالى للأشياء والتعبير عنه بالابداع الفنى . وضرب مثلا بالشعر على أنه صور ذهنية للتراكيب المنتظمة لأن (مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج . والصورة الذهنية المنطقية كالقالب الذى يبنى أو المنوال الذى ينسج عليه . فان خرج القالب فى بنائه أو عن المنوال فى نسجه كان فاسدا) . وركز على حفظ أشعار العرب للوصول الى الابداع فى الشعر لأن (الحفظ يبنى بالذهن قالبا كليا به يبدع الشاعر قصائده .. والعزيمة مثل الضرع (يقصد التدريب) يدر بالامتراء ويجف بالترك والاهمال) .

وقصد ابن خلدون بالقالب الذهنى الملكة التى (ينسج على

منوالهـا الشـاعر ويتخـير المحفوظ من الحر النقى الكثـير الأساليب) .

وهـذه الشروط التى وضعها ابن خـلدون تتوافق مع نظريات علم الجمال كما بنيت من قبل ولاسيما وأنه ربط بين المستوى الحضارى والادراك والابداع الجمالى لدى الأشخاص. لهذا جعل الانسان مصـدر ادراك هذا الجمال فى شتى الفنون من شعر أو موسيقى أو تصـوير . وهذا ما حدثنا به فى مقدمته الشهيرة . لأن علم الجمـال كما هو معروف يقوم أساسا على البصيرة (الادراك) والتعبير . لأن المخيلة تشكل التأمـلات بالاحساس بالجمال بشتى صوره وتجعل البصيرة تدعم هـذه الأحاسيس بالأشـكال والصـور والألوان والأنغام والكلام لأن الجمال تأمل .

ولقد بين ابن خلدون أن تعليم العلم صناعة والعلم والتعليم من ضرورات العمران البشرى وتختلف طرق المعلمين باختلاف الأزمان والبلدان ووضع نظرياته فى التعليم والتربية بما يتفق مع النظريات التربوية الحديثـة . لأنه جعل (من كانت تربيتـه بالعسف والقهر من المتعلمين أطفال أو غـيرهم لا يستطيـع

الاستجابة لتلقى العلم ويفتقد النشاط ويخيم عليه الكسل ، الأمر الذى يؤدى به الى سلوك طريق الكذب والخبث والتظاهر بغير ما فى ضميره خوفا مما يلحق به من الأذى على أيدى هؤلاء المعلمين وكذلك يتعلم المكر والخديعة فتصبح لديه عادة وخلقا) وهذه الخلدونية حاكاها (جان جاك روسو) فى كتابه (اميل) دستور التربية منذ القرن الـ ١٨ وقد سبقه ابن خلدون بنظرياته التربوية هذه بثلاثة قرون .

ابـــن رشـــــد
الشــــارح الأكبــــر

هو الوليد محمد أحمد بن رشـــد القرطبى (٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م ــ ٥٩٥ هـ/١١٩٨) وهو من أسرة كلها قضاة لقرطبة . درس علم الكلام على مذهب الأشعرى والفقه المـــالكى والطب والفلسفة والفلك . وهذا ما جعله عقلانى الفكر . لقبه الغرب بالشارح الأكبر لأنه قام بشرح آراء وفلسفة أرســـطو شرحـــا وافيا . ولقبه فلاسفة اليهود بنفس وعقل أرسطو وقاموا بترجمة أعماله الى العبرية .

وابن رشـــد يعتبر علما من أعـــلام الحـــكمة الأندلسية الاسلامية كما اشتهر كطبيب ببلاط أمير الموحدين بالأندلس . وكتابه (الكليات) فى الطب ترجم الى اللاتينية فى مدينة بدوا عام ١٢٥٥ م . وفى البندقية عام ١٥٥٢ م وليدن عام ١٥٣٧ م لأهمية هذا الكتاب وظل منهجه فى الطب يدرس لعدة قرون فى جامعة بولونيا . والكتاب نال شهرة لمـــا احتواه من شتى العلوم

الطبية كالباثولوجى والتشريح والفسيولوجى (وظائف الأعضاء) والتغذية والدواء • وانتقد ابن رشد جالينوس فى كتاباته عن التنفس فى الانسان •

قال عنه المستشرق (ديلاسى) أنه من أعظم الفلاسفة العرب وآخرهم تقريبا • وآراؤه انتقلت الى المسيحية اللاتينية ولا سيما نظرياته الفلسفية التى تبرهن الحقائق الدينية بل وتؤيدها • لأن ابن رشد كان له مذهبه الذى انتشر فى أوروبا وظل لعدة قرون • وأطلق عليه الرشدية (Averyoism) وهذا المذهب أثر فى فلسفة العصور الوسطى واللاهوتين المسيحى واليهودى تأثيرا مباشرا • وتبنى أعضاؤه فكر وشروح ابن رشد ولا سيما آراءه عن الأبدية وخلق العالم وخلود الروح • وظلت الرشدية لها تأثيرها فى الفكر الأوروبى حتى القرن الـ ١٦ عندما حرمها مجلس (بنفنتو) عام ١٥١٣ م • وقد كان رجال الدين ينظرون الى الرشديين على أنهم ملاحدة ودعوتهم دعوة شيطانية • وكانت آراؤه حول الطبيعة والجبرية والاختيارية قد جعلت جامعة باريس تحظر تدريس كتبه بها عام ١٢١٠ م • الا أن هذا لم يقلل من شهرة ابن رشد التى ظلت آراؤه تدرس فى كلية آداب جامعة باريس منذ عام ١٢٨١م وحتى الآن • وهذا ما جعل القديس (توما الاكوينى) يهاجم الرشديين • كما أدانتهم الكنيسة بفرنسا عام ١٢٧٠ عندما

شنت حملاتها ضد الرشدية ووصفتها بالانحراف والزيغ ، كما وصفت ابن رشد نفسه بأنه فاسق وملعون • ورغم هذا أوصى الملك لويس الـ ١١ الجامعـة الفرنسية عـام ١٤٧٣ عند تنظيم التعليم الفلسفى بها أن تتخذ مذهب ابن رشد أساسا لها • لأنه ــ على حد قوله ــ صادق فيما كتب وكتاباته صحيحة • وأخذت أفكار ابن رشد تتسلل الى شرق ايطاليا وحـاول بعض فلاسفة الغرب أمثال نيفوس وزيمارا فى القرن الـ ١٦ التوفيق بين فلسفة ابن رشـد واللاهوت المسيحى فقاما بترجمة الكثير من أعماله • وأصبحت الجماعات الرشدية فى أوروبا تمثل مذهبا فكريا قويـا واتجاها رئيسيـا فى الفـكر الأوروبى • وكان الرشيديون من أقوى الجماعات الفـكرية وقتها ولا سيما فى ايطاليا وفرنسا وهذا ما جعل دانتى نفسه برغم تعصبه يضـع ابن رشد فى مكان ممتاز وبارز كما جاء فى الكوميديا الالهية • ومما ضاعف فى انتشار آراء ابن رشد ظهور الطباعة • فكانت أعماله تطبع وتترجم على نطاق واسع فى بادوا وباريس ونابولى وبولونيا وليون واسترازبورج وجنيف • ولهـذا كانت كتبـه واسعة الانتشار ورائجة هناك • واتخذ المنشقون عن الكنيسة الغربية ــ وقتها ــ من آراء ابن رشد سلاحا يشهرونه ضدها وأطلق الغرب على هؤلاء المصلحين «الراشديين» الا أن الكنيسة هاجمتهم هجوما عنيفا ولاسيما مع مطلع عصر النهضـة • وكان

من أثر فكر ابن رشـد على الفكر الغربى ظهور الفيلسـوف اليهودى سبينوزا وغيره من الفلاسفة اليهود كما سـاعد على ظهور دعوتى مارتن لوثر وكالفن • وهـؤلاء قاموا بالحـركة الاصلاحية لليهودية والمسيحية نتيجة لتأثرهم بالحركة الرشـدية وقتها • لهـذا كان القرن الـ ١٣ هو العصر الذهبى للفلسفـة الاسلامية فى أوروبا حيث أثرت كتابات ابن رشد وابن سينا والغزالى على الفـكرين اليهودى والمسيحى معـا • فنجـد (جلسون) شيخ مؤرخى فلسفة العصور الوسطى يحـاول التوفيق بين الفلسفة الاسلامية والفلسفـة المسيحية • ولهـذا نجد ــ أيضا ــ الدومنيكان رغم معارضتهم لآراء ابن رشـد بالذات وفليسوفهم (توما الاكوينى) الذى حارب الرشـديين فالاكوينية (مذهبه) تتسم بالرشدية قلبا وقالبا قد التزموا بها • وكان الرشيديون قد تبنوا المذهب العقلى لمعارضة الكنيسة ودار بينهما جدل فلسفىامتد الى قرنين فىجامعتى بولونيا وبدوا وهذا أثر على الفكر المسيحى الغربى فى القرن الـ ١٥ تأثيرا كبيرا مما أظهر المذاهب المسيحيـة المنشقة عن البابوية فى روما نتيجـة لأن الرشديين كانوا يقودون الحركة التحررية فى الفكر الغربى وقتها ، حتى نجد (ارنست رينان) فى كتابه عن (ابن رشـد والرشديون) يبين تأثيره على فنون التصـوير الايطـالى فى القرنين الـ ١٤ و الـ ١٥ • فنجد المتاحف والكنائس ما زالت

تحتفظ بلوحات معبرة ومستوحاة من فكر ابن رشد • كما يؤكد برتراند راسل أن ابن رشد قد أثر على فكر (توما الاكوينى) رغم أنه حاول بشتى الوسائل ازاحة الآراء الرشدية عن معاقلها باصداره كتابه (خلاصة الرد على الحوار)• ورغم هذا فالمطلع له سيجده لم يستطع التحرر من مذهب ابن رشد • واستوحى منه الكثير من الأفكار التى غير بها فى اللاهوت المسيحى واعتبر (توما الاكوينى) بهذا العمل رسولا ومعلما بل وقديسا فى روما • وكانت مدرسة الدومنيكان التى تقوم على الاكوينية على صلة وروابط فكرية مع جماعات الرشديين فى باريس • حتى نجد المدرسة الاكوينية الحديثة تقوم حاليا على فكر ابن رشد •

وابن رشد كان أصولى الفكر دافع عن الاسلام بعقلية واعية بل ومدركة بعيدا عن ارهاصات الفرق الكلامية الاسلامية التى كانت تكفر بعضها كالمعتزلة وغيرها • فكان يعتبر أن العقل لا يتعارض مع الدين ودعا للعودة الى الأصولية الاسلامية كما كانت فى صدر الاسلام • وهذا يتضح فى كتابه (مناهج الأدلة فى عقائد الملة) • فاتهمه فقهاء قرطبة بالزيغ والالحاد وقدموه الى المحاكمة أمامهم فى جامع قرطبة الكبير وحكموا عليه بالنفى واحراق كتبه بعدها ومنع أمير الموحدين (المنصور) الفلسفة والاشتغال بها • وكان عمر ابن رشد قد ناهز السبعين وقت هذه النكبة •

وفلسفة ابن رشـد تتركز فى الالهيـات • ويعتبر العقل هبة الله لا يتناقض بفكره مع الوحى الذى جاء بالقرآن • والعلم الالهى يختلف عن علم الانسان لأن علم الله ــ سبحانه ــ سابق للأشياء وعلم الانسان لاحق لوجود هـذه الأشياء • والله هو خالق كل شىء لهذا فعلمه ــ جل شأنه ــ هو كل شىء • وطالب بقصر الجدل الفلسفى على العلماء والخاصة حتى لا يشاع هذا الجدل بين العوام فيضلوا •

وابن رشد أجاب عن السؤال الذى حير الفلاسفة وعلماء الكلام وهو (هل العالم قديم أم حادث ؟) • فنراه يجيب على هذا بتقسيم الموجودات الى ثلاثة أقسام هى :

١ ــ الموجودات المحسوسة (المخلوقة) كالكائنات وكلها محدثة لأن الزمان يتقدم على وجودها •

٢ ــ الموجود القديم (الله) وعرفه بأنه ــ سبحانه ــ (موجود لم يكن من شىء ولا عن شىء ولا تقدمه زمان) • وهذا القول لا يتعارض مع الفكر الاسلامى لأن الله مدرك بالبرهان وهو ــ جل شأنه ــ فاعل (خالق) الكل وموجده ومحافظ عليه •

٣ ــ الموجود الوسـط (الكون) وهو يندرج ما بين الموجودات المحسوسة والموجود القديم • وعرفـه

بأنه (موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان • ولكنه موجود عن شيء أى عن فاعل • وهـذا هو العالم بأسره) •

واستشهد ابن رشد فى كل كتاباته بالقرآن والآيات القرآنية الدالة على الخلق والوجود • فنراه يفسر نظرياته مستشهدا بقوله تعالى : « هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » • فقال ابن رشد (أن هذا يقتضى وجودا قبل هـذا الوجود وهو العرش والماء وزمانا قبل هذا الزمان) • واتهم لهذا بالالحاد فى الشرق والغرب رغم أنه القائل (ان النظر الصحيح لا يمكن أن يؤدى الى مخالفة الشرع • لأن الحق لا يعارض الحق بل يوافقه ويشهد له) •

وأخيرا هذه سيرة وفكر ابن رشد الذى أظهرت آراؤه الحركات الاصلاحية فى الكنيسة اللاتينية خلال العصور الوسطى وغير الفكر اليهودى من جذوره وكان سببا فى شهرة أرسطو فى الغرب عندما قام بشرح فلسفته شرحا وافيا • عرف الغرب من خلاله معميات فكر أرسطو رغم أن ابن رشد لم يترجمها لأنه لم يكن يعرف الاغريقية أو السريانية واعتمد فى شروحاته على الترجمات العربية وقتها • ولهذا كله أصبحت سيرته ثبتا فى تاريخ الفلسفة كمفكر من أعظم مفكريها •

أبـن زهـــر

طبيـــب الأنـــدلس

عالمنـا أول من قام بعمليـة الصـدر المفتوح مستعينا بالتخدير •• وهو من أسرة بنى زهر التى اشتهرت فى الأندلس بالطب ، فأبوه وجده كانا مشهورين كطبيبين فى بلاط المرابطين وتعلم من أبيه طرق التشخيص للأمراض عن طريق بول المريض وقياس نبضـه • وزاد عليـه النظر الى عين المريض • وكان يمارس الجراحة فى مستشفاه الخاص بأشبيلية وكان قبل اجراء العمليات الجراحية يعقم آلات وأدوات الجراحة بغسلها بالمـاء وكان لهذا على علم بخاصية المـاء فى التطهير وأهميـة عسل النحل فى قتل الجراثيم • وكان على بينة من أن تلوث أدوات الجراحة تلوث الجروح •

وأبو مروان عبد الملك بن زهر الذى ولد عام ١٠٩١ م/ ٤٨٦ هـ • وتوفى عـام ١١٦٣ م/٥٥٨ هـ • كان فى عملياتـه الجراحية يستعمل المرقد (البنج) فى تخدير مرضـاه • فكان

يستعمل طريقة الأسفنجة المخدرة التى كانت عبارة عن أسفنجة مشبعة بعصارة الأفيون الذى يحتوى على مادة المورفين المخدر وكان يخلط العصير بأوراق ست الحسن والزؤان . ويجفف الأسفنجة فى الشمس . وقبل العملية كان يرطبها بالماء ثم يضعهاعلى أنف المريض .. وبعد العملية كان يخيط الجروح لتلتئم .. واشتهر بعلاج (الخراريج) فوق الرئة بشق الصدر وتطهيرها .

وابن زهر اشتهر بتشخيص التهاب غشاء القلب وأمراض الرئة ولهذا نجد أن صرح الجراحة الحديثة فى أوربا قام على أعماله . وانتشرت فنونه فى التشريح هناك . ولا سيما فى ايطاليا وفرنسا .

وكان بارعا فى علاج الكسور واستعمال الجبائر ووصلت براعته فى الطب لدرجة أنه من خلال علمه وخبرته الواسعة .. قام بتفنيد آراء (جالينوس) فى التشريح . وكان يحضر الدواء والشراب لمرضاه من بذور النباتات بعد طحنها وغليها . ثم يقوم بتوليفها ومعايرتها وكان ملما بأوزانها ومفرداتها . ومما سهل له عمله الصيدلى أنه كان ملما بأنواع الأعشاب الطبية والعقاقير الطبيعية التى كانت ترد الى بلده اشبيلية من الهند والصين واليونان . وكان يجيد قراءة أسمائها بالعربية والسريانية واليونانية .

وقام ابن زهر بجمع تراث جده وأبيه فى الطب فى كتابه (الاقتصاد فى اصلاح الأنفس والأجساد) وضمنه ـ أيضا ـ تجاربه وأبحاثه ليكون مرجعا لكل طبيب ودارس للطب • وكان فى مستشفاه يتبع أسلوب الترفيه عن مرضاه بالاستماع الى الموسيقى والقصاصين ورواة الشعر •• وكان يعرض عليهم خيال الظل لينسوا آلامهم •

وتتلمذ الفيلسوف الشهير ابن رشد على يدى ابن زهر واشتركا معا فى فلسفة الطب • فقام ابن رشد بكتابة الجزء النظرى فى كتابه (الكليات) وقام ابن زهر بتفسير ما كتبه ابن رشد بكتابة كتابه (التيسير فى المداواة والتدبير) • تناول فيه ابن زهر الجزء الاكلينيكى والتجارب العملية والنتائج العلمية التى توصل اليها ولا سيما فى التشريح والدورة الدموية • ونشر كتبا فى الأدوية المفردة وعلاج البرص وأمراض الجلد والشعر • ومما يلفت النظر ما قاله عن الحميات العفونية مؤكدا على استعمال الخل والفلفل للوقاية منها • وهذه حقيقة مؤكدة فى علم البكتريولوجى الحديث لأن البكتريا لا تعيش فى وسط حامضى ولا فى الزيوت الحريفة والطيارة التى فى الفلفل •

هذه سيرة طبيب من أبرز الأطباء المسلمين وأمهرهم • ولقد ترجمت كتبه ورسائله الى الايطالية عام ١٢٨١ م •

واللاتينية عام ١٤٩٠ م . وطبع فى ليون بفرنسا كتابه (التيسير). وكان هـذا الكتاب يطبع مع كتاب ابن رشـد الكليات فى مجلد واحد لأنهما يضمان الجزء النظرى فى كتاب ابن رشـد والجزء العملى فى كتاب ابن زهر .

وأخـيرا .. أصـدق وصف لابن زهر الطبيب الأندلسى ما قاله عنه تلميذه ابن رشد بأنه أفضل طبيب بعد (جالينوس) أبى الطب .

ابن سينا

المعلم الثالث وأمير الأطباء

هو أبو الحسن بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ هـ/٩٨٠ م ٤٢٥ هـ/١٠٣٧ م) ولد ببخارى بأزبكستان • فليسوف وعالم منطق وميتافيزيقيا وطبيبا وشاعرا • لقب بالشيخ الرئيس والمعلم الثالث (الفارابى المعلم الثانى بعد أرسطو) • واشتهر ابن سينا بالطب والفلسفة الا أنه كان شاعرا موهوبا عندما صاغ أراجيزه الشعرية فى الطب والفيزياء والفلسفة والتصوف وكان يعتبر من رواد الشعر التعليمى فى المنطق والطب • كما ابتدع فى الشعر - أيضا - الرباعيات الفلسفية التى حاكاها عمر الخيام فى رباعياته التى نسجها على منوالها فى القرن الـ ١٢ •

ومما يدهشنا حقا عندما نطالع سيرته أنه كان سابقا لعصره فى مجالات فكرية شتى لهذا كانت معظم أعماله لها تأثيرها

الفكرى والعلمى على النهضة الأوربية • وهذا ما يؤكد أصالة فكره وتفكيره مما جعل البروفسير (صاديكوف) يصفه بأنه رائد للعلم الحديث • وضرب لنا أمثلة حول نظرياته عن وحدة المكان والزمان والحركة والكتلة وأصل الانسان وكلها نظريات شغلت علماء الرياضة والطبيعة والأجناس المعاصرين •

ففلسفة ابن سينا انبهر بها الغرب وعلى رأسه الفلاسفة اللاحقين كروجربيكون وروجون سكوت والقديس أوجست والبرتوس الكبير وتوما الاكوينى وهذا ما جعل الفليسوف الانجليزى الشهير بيكون يصف ابن سينا بأنه من كبار الأنبياء• أو على حد قول المستشرق الأسبانى (سلفادور نوجالى) أستاذ الفلسفة العربية بالمعهد الأسبانى العربى من أن الغرب يدين لمذهب ابن سينا لأن مذهبه فى الفلسفة كان مدعاة لبعث حركة فكرية ناهضة أطلق عليها (السينوية اللاتينية) • أما فى العالم الاسلامى فنرى فلاسفة الأندلس وعلى رأسهم ابن رشد قد وقفوا موقفا عدائيا وصريحا ضد مؤلفات ابن سينا الفلسفية وأشادوا بعبقريته الطبية ورغم هذا نجد ابن رشد قد أتخذ من كتاب الشفاء لابن سينا مرجعا له فى كتاباته الفلسفية • وهذا

ما جعل الغرب يعنى بكتاب ابن سـينا هـذا بعدما استهوى اللاتينيون • لأنه كان فى نظرهم موسـوعة فلسفية متكاملة فترجموه • وفى المشرق الاسلامى نرى الغزالى يتهمه بالزندقة والهرطقـة ورمى فكره بالتناقض مع الدين والقرآن رغـم أن ابن سينا كان دائما فى كل كتاباته يؤكد على أن الفلسفة تشكل قلب الدين وجوهر التصـوف • فلهذا نراه يؤلف بين الفلسفة والدين ويؤلف بين العقلانيـة الفكرية والروحانية الايمانية •

وابن سينا كان طبيب عصره لهذا لقب بأمير الأطباء وكلما حل ببلدة فتح له فيها عيادة ليعالج مرضـاه بالمجـان • وكان يمارس الطب التجريبى عليهم ويطبق ما درسـه فى الكتب فى علاجاته • لهذا كان ملما بالأدوية المعروفة وقتها وأى دواء جديد يتعرف عليه كان يجربه اكلينيكيا على الحيوان ثم يعطيه للانسان وهذا الأسلوب مازال متبعا فى علم الأدوية (الأقربازين) • وبرع ــ أيضا ــ كجراح عندما كان يستأصل الأورام السرطانية فى مراحلها الأولى • ويعتبر ابن سينا معلم الأوربيين الطب وكان من تقـديرهم له يطلقون على الطبيب الحـاذق عندهم لقب (صنو أو روح ابن سينا) •

وكتاب (القانون فى الطب) لابن سينا يضم خمسة مجلدات كما يعتبر موسـوعة طبية شاملة لأنه حوى المبادىء العامة فى

الطب وطبيعة ووظائف أعضاء الجسم وأمراضها وطرق العلاج بالعقاقير الطبية • وتضمن الكتاب وصفا لـ ٧٦٠ عقارا رتبهم أبجديا بالكتاب • واستعان المصور الايطالى (دافنشى) بهذا الكتاب فى تصوير الرسم التشريحى للقدم فى كتابه المصور (المرآة) •

ويتميز كتاب (القانون) بأنه تطرق الى أمراض (المخ والأعصاب) كالصداع والصرع والشلل • كما تناول أمراض العيون والأنف والأذن وزراعات التجميل • وكان (القانون) له أهمية كبرى لدى الأوساط العلمية فى الغرب لدرجة أنه طبع فى القرنين الـ ١٥ والـ ١٦ أكثر من أربعين طبعة فى أوربا ولما ترجمه (أندريه الياجور) للايطالية عام ١٥٢٠ م • أصبح يدرس فى الجامعات الايطالية والفرنسية لعدة قرون • وأصبح (القانون) لمدة ٥٠٠ عام أهم من كتاب جالينوس فى الطب لأنه رغم معلوماته الأصلية يحتوى على مليون كلمة • وأصبح هذا الكتاب فى أوربا بعد اختراع الطباعة ثانى كتاب بعد الكتاب المقدس (الانجيل) ، طباعة وتوزيعا • وقد أشاد به (نويجر) قائلا : بأن الغرب كان ينظر اليه كأنه وحى معصوم • وقال عنه (لويزن) أنه ظل يدرس بجامعة (مونبلييه) بفرنسا زهاء ستة قرون • والكتاب به شرح واف عن كيفية تشريح عضلات عين الانسان وشرح فيه كيفية الابصار وعمل القلب

والبطين ونظرية وجود الصمامات القلبية كما حدد ضربات القلب بأنواعها المعروفة حاليا . كما تناول الكتاب لأول مرة طرق العدوى للأمراض المعدية ولا سيما العدوى بالجدرى والحصبة . فبين كيفية انتقال العدوى بواسطة الكائنات الدقيقة الحية من الماء والجو وهذه النظرية أكدها (فان ليونهوك) فى القرن الـ ١٨ والعلماء من بعده بعد اكتشاف الميكروسكوب. وكان ابن سينا بارعا فى تشخيص الأمراض الباطنية بالقرع باصبعه فوق جسم المريض وهذه الطريقة التشخيصية حاليا متبعة فى تشخيص الأمراض الباطنية بعدما اكتشفها (ليوبولد اينبرجر) فى القرن الـ ١٨ .

وإذا كان ابن سينا قد وضع كتابه (القانون) لشفاء الأجسام فنرى كتابه الثانى (الشفاء) قد وضعه لشفاء الأرواح وحاز فى الغرب على شهرة (القانون) لأنه تناول فيه المعرفة النظرية حول الطبيعيات والرياضيات والميتافيزقيا والمعرفة التجريبية من الأخلاقيات كما تناول النظريات السياسة والاقتصادية .

وكان ابن سينا عالما تجريبيا فنراه قد قام بعدة أرصاد فلكية ودرس الحركة والقوة والفراغ والضوء والحرارة والجاذبية وتحويل المعادن علاوة على أنه كان طبيبا ماهرا . فكان يصف مرض السكر وصفا دقيقا وبين أنه يسبب الهزال

وفتح الشهية والعطش الشديد وزيادة التبول واحتمال التسبب فى اصابة المريض بالغرغرينا . وقام ابن سينا بعمليـات جراحية دقيقة كشق الحنجرة والقصبة الهوائيـة واستئصال الخراريج من الغشاء البللورى بالرئة وكان يعـالج البواسـير بطريقـة الربط . وكان يهتم فى العـلاج بالتمارين الرياضـية لأنهـا (تمنع تراكم المواد الموهنة للجسم ويضفى الخفة اللازمة له) . كما اهتم بصحة الطفل وتغذيتـه وكان يعتبر حلمة الأم فى فم الطفل عونا عظيما له وتزيل أى شيء يؤذيه . وشدد على أن يكون استحمام الطفل صيفا بماء فاتر وفى الشتاء بماء دافىء .

وأفكار ابن سينا كانت نبراسا للعلماء من بعده أرشـدت (جاليليو) عالم الفلك فى القرن الـ ١٧ .. الى اكتشاف نظرية الضوء الذاتى وقادت داروين الى نظرية التطور . كما جعلت الفلكى الانجليزى (جيرمياروكس) فى القرن الـ ١٧ يقر بنظرية ابن سينا فى الفلك التى بين فيها مرور كوكب الزهرة عبر دائرة قرص الشمس وقد كان ابن سينا قد رصـده يوم ٢٤ مايـو عام ١٠٣٢ م . بالعين المجردة .

ومارس ابن سينا ضمن علاجاته طريقة التحليل النفسى قبل أن يمارسها (فرويد) فى القرن المـاضى . وقصته مع الشاب العاشق مشهورة عندما أعياه المرض وعرفه من زيادة ضربات

قلبه عندما قال له : ألم يأسر قلبك جمال امرأة ؟ • وأخبر أهله أنه مريض بالعشق ولا دواء له سوى الزواج فزوج فشفى •

وحدثنا عن تلوث البيئة وأثره على صحة الانسان بقوله : (فمادام الهواء ملائما ونقيا وليس به أخلاط من المواد الأخرى بما يتعارض مع مزاج التنفس فان الصحة تأتى) • كما بين الحساسية التى تسببها الملوثات عندما قال : وتكون مادة الهواء طيبة ما دامت غير ملوثة بمواد خارجة مثل بخر المستنقعات (البيوغاز) والبحيرات والترع والمجارى المكشوفة أو النواتج عن الأعمال الكماوية أو الدخان أو السفاح (سفك الدماء) • فالهواء يكون طيبا لا يتعارض مع تنفس الانسان أو يتسبب فى انقباض الحنجرة •

وابن سينا كان دقيق الملاحظة عندما نراه يفرق بين سرعتى الضوء والصوت فبين أن الرعد المصحوب بالبرق (يرى فى آن ويسمع فى آن آخر • بعد أن يتحرك الصوت بالهواء ويصل الى السمع تدريجيا) • لهذا نرى العالم الفزيائى المعروف (اسحق نيوتن) يقر بفضل ابن سينا عليه بقوله : اذا كنت قد رأيت أبعد مما رآه (ديكارت) فلأننى واقف على أكتاف ابن سينا • فمن المعروف أن ابن سينا له نظرياته فى (ميكانيكية الحركة) ومن بينها قوله عن القوة الحركية الغير مادية بأنها (تعادل الدافع أو الطاقة الحركية التى تضفى على الجسم) •

وهذه النظرية أطلق عليها ابن سينا (شدة كمية التحرك) التى توصل اليها فى القرن الـ ١٤ (جان بيردان) . فابن سينا بعنايته بمسائل الحركة يكون قد سبق ديكارت وهوجنز ولينتزود المبير وطومسون وكيرتشوف فى هذا المجال والحركة فى نظر ابن سينا لها كميتان احداهما طول مداها (المسافة) والأخرى الزمن الذى تتم فيه . ووضع ابن سينا فرضية حول سرعة الحركة وهى (الكمية بين بداية ما قد انقضى من قبل ونهاية ما قد يتبع هى مقياس سرعة الحركة أو بطئها) . وهذا ما قاله (اينشتين) فى نظريته النسبية الشهيرة التى كانت سببا رئيسيا فى انطلاق المركبات الفضائية . وقد فصل ابن سينا نظرياته بقوله : ما يمر (من جسم) فى وقت قصير يتحرك بسرعة . فالكتلة الأصغر يجب أن تتحرك بسرعة أكثر " والكتلة الأكبر حركتها أبطأ . ولكننا فى واقع الأمر نرى عكس ذلك . وبهذا سبق ابن سينا اينشتين بألف عام .

وكان لابن سينا نظرياته فى علم (الأجناس البشرية) وسبق بهذا (دارون) و (هكسلى) بعدة قرون . فابن سينا قال : الانسان يكمن فى نوع حيوانى . فلو أن هذا النوع الحيوانى قد اكتسب كل الحواس القادرة على فهم الأشياء المدركة حسيا . فليس من الضرورى أنه فى امكان الطبيعة أن تحوله من حيوان الى نوع من المخلوقات العاقلة .

وابن سينا كفيلسوف نراه فى أواخر حياته يطرح فى كتابه (الاشارات والتنبيهات (أفكارا عن الصوفية التجريبية متخليا عن الاستدلال المنطقى والفلسفى . وفى كتابه (الحكمة المشرقية) يطرح فكرة الاشراق التصوفى وهذا ما جلب عليه الغزالى ومن بعده ابن رشد فانتقداه بشدة ورغم هذا كانت أفكاره الهاما للفلاسفة المسلمين والغربيين رغم ما أفك حوله من اتهامات واشاعات وأرهاصات لاحقت تاريخه . فمعاصروه اعتبروه شيطانى الفكر لأنه أقحم الفلسفة فى تفسير القرآن وأكد بأنها تشكل قلب الدين . فرماه علماء الدين بالزندقة رغم أنه القائل : ايمانى بالله لا يتزعزع . فلو كنت كافرا فليس ثمة مسلم حقيقى واحد على ظهر الأرض . وهو القائل : الله هو الظاهر والباطن وهو يتجلى فى كل مكان وفى كافة المخلوقات.

وابن سينا قال عنه (سخاو) أنه أكبر عقل ظهر فى التاريخ الانسانى وقال عنه (سارتون) أنه ظاهرة فكرية لا يمارى فى ذكائه أو انتاجه الوفير وظلت جامعة (لوفان) تدرس كتبه حتى القرن الـ ١٧ . والى الآن مازالت صورته بجوار الرازى معلقة فى بهو كلية طب جامعة باريس كرمز بأنهما من عظماء الطب فى التاريخ الانسانى كله . وعلى حائط مكتبة (بودلين) الشهيرة رسمت صورة ابن سينا واللوحة المحفورة فى أوربا تصوره يتوسط جالينوس وأبو قراط (الهى الطب) ووضع

الفنان فوق رأس ابن سينا تاجا من اكليل الغار اشارة الى أنه ملك الطب وامام الأطباء بلا منازع ٠

لما أحس ابن سينا بدنو أجله أعتق خدمه ووزع عليهم كل ثروته وحاول قهر الموت وتحقيق الخلود وهو على فراش الموت كان قد أوصى أحد تلاميذه بحقنه بأربعين مادة ٠ فيقال لما حقنه منها بدأت حيوية الشباب تظهر عليه ولما حانت الكبسولة الأخيرة وقد بدأ يتنفس سائلها من يد تلميذه بعدما ارتعشت ٠ فسال السائل فوق الرمال ٠ ورغم هذا ظل ابن سينا خالدا بأعماله ٠ !

ابن طفيل

الفيلسوف المعلم

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك ابن طفيل (١١١٠ م/ ٥٠٦ هـ ــ ١٨٨٥ م/٥٨١ هـ) • ولد بقرطبة بالأندلس ومات بمراكش • كان فيلسوفا صوفيا وطبيبا وفلكيا وشاعرا وأديبا أندلسيا • وكان تلميذ الفيليسوف الأندلسى الشهير ابن ماجه وأستاذا لابن رشد والبطروجى الفلكى المعروف •

وابن طفيل لكونه فيليسوفا صوفيا يعتبر رائدا للمدرسة التأملية • فنراه يعارض فلاسفة عصره كالفارابى وابن رشد ومن قبلهما ابن سينا والغزالى • وفلسفته قد ضمنها قصته الرمزية الشهيرة (حى بن يقظان) التى صاغها ونسجها بأسلوب أدبى رائع وضمنها آراءه الفلسفية ونظرياته •

وأصدق وصف لابن طفيل ما قاله عند المراكشي من أنه أحد حسنات الدهر . ووصفه لسان الدين بن الخطيب بأنه كان (عالما محققا شغوفا بالحكمة المشرقية ،متصوفا ، طبيبا ماهرا فى أصول العلاج ، فقيها بارعا فى الاعراب ، كاتبا بليغا ، ناظما ناثرا ، مشاركا فى عدة فنون) . هذه ملامح شخصيتنا التى عاصرت أفول دولة المرابطين بالأندلس وبزوغ دولة الموحدين بها . ولعب فيها دورا بارزا لحشد العلماء حول الخلافة فى أشبيلية التى أصبحت بفضله جامعة الأندلس . فكان حوله تلاميذه ومن بينهم ابن رشد وابن زهر الطبيب الأندلسى الشهير والبطروجى الفلكى المعروف . ونرى ابن طفيل يوكل للفليسوف ابن رشد مهمة تلخيص وشرح فلسفة أرسطو وفرغه لهذا العمل وكانت سببا فى ذيوع صيت ابن رشد بفضل توجيهات ابن طفيل لهذا يعتبر الفيلسوف المعلم ابن طفيل أحد أقطاب فلسفة الحكمة الأندلسية العظام بلا منازع .

وقصة (حى بن يقظان) الشهيرة كانت سببا رئيسيا فى ذيوع صيت الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل حتى نرى المستشرق الأسبانى القس آسين بلا سيوس ومندث بيلا يو أستاذ الأدب

الأسبانى يعلقان على هــذه القصة الفلسفية قائلين بأنها أعظم آثار الأدب العربى حيث تتسم بالأصــالة والتفرد • لأنه كان أول فليسوف فى دولة الموحدين بالأندلس والمغرب متأثرا بفكر وآراء أســتاذه ابن ماجه الا أنه ـ كمــا يقول عنه (أوليرى دى لاسى) فى كتابه (الفكر العربى) كان رأيه أن الوجود هو وسيلة الوصول الى أرقى مراتب المعرفة والاتصال بالله • لأن فلسفته فلسفة صوفية أكثر منها الهيات صــوفية • وهــذا يتضح من سياق قصته (حى بن يقظان) التى تعتبر من القصص الفلسفى الصوفى حيث وفق فيها بين الفلسفة والدين • فنجد أن نظرياته من خلال أحداثها تقوم على فكرة التأمل العقلى الذى يوصل الى معرفة الخالق • لهذا أطلق على هذه القصة (رسالة حى بن يقظان فى أسرار الحكمة المشرقية) • وأراد ابن طفيل فى هذه الرسالة التوفيق بين الحكمــة المشرقيــة والحكمــة الأندلسية • لهذا نجده قد وفق بين فلسفة الفارابى فى مدينته الفاضلة وابن سينا فى الحكمة المشرقية وفلسفة الغزالى وآرائه فى التصــوف وفلسفة أستاذه الأندلسى الفيلسوف ابن ماجة • وبهــذا التوليف توصــل ابن طفيــل الى الفلسفة التأمليــة الصــوفية•

وابن سينا كان قد سبق وأن وضع رسالة أطلق عليهــا (حى بن يقظان) الا أنه كان يرمز الى (حى) فيها بالعقل ورفاقه

رمز اليهم بالشهوات والغضب والغرائز الانسانية • وصور جدله مع رفاقه على أنه صراع بين العقل والشهوة عكس ابن طفيل الذى رمز بحى بن يقظان على أنه العقل البشرى والى يقظان بالخالق (سبحانه) لهذا نجد أن لقصة ابن طفيل دلالة فلسفية خاصة وهى أن الانسان مفطور بطبعه على ادراك العالم العلوى ويمكنه بالعقل والتفكير الاهتداء الى وجود الله وخلود النفس (الروح) • واعتبر فلاسفة عصر النهضة الأوربية أن قصه (حى بن يقظان) تجسيد قصصى لتاريخ نشوء الفكر الانسانى وتطوره طوال القرون التى مضت منذ بدء الخليقة • وهذا ما جعل اللاتينيين يصفون ابن طفيل فى ترجماتهم للقصة بأنه (الفيلسوف المعلم نفسه) وصدرت الترجمة اللاتينية طبعة اكسفورد عام ١٩٧١ م • تحمل هذه العبارة عندما ترجمها الأستاذ الانجليزى (ادوارد بوكوك) • وكان قد ألحق بها دراسة للقصة والنص العربى لها وكانت هذه الترجمة سببا فى انتشارها ودراستها وترجمتها الى الانجليزية فيما بعد •

والقصة أثرت فى الأديين الأسبانى والانجليزى معا • فنرى (بلتسار جراسيان) الأديب الأسبانى يحاكى القصة عندما كتب روايته الرمزية (الناقد) عام ١٦٥١ م • وكانت سببا فى شهرته واكتشف (بيلايو) أستاذ الأدب الأسبانى التطابق

الكامل بين القصتين عندما نشر دراسته عنهما • كما نجد الروائى الانجليزى الشهير (دانييل ديفو) قد نسج قصته الشهيرة (روبنسون كروزو) التى تعتبر متطابقة تماما فى أحداثها وصورها الفلسفية مع قصة (حى بن يقظان) لابن طفيل وكانت قصة (ديفو) سببا فى شهرته وتعتبر من روائع الأدب العالمى وترجمت الى اللغات العالمية رغم أنها نسخة طبق الأصل من قصة ابن طفيل • التى أصبحت حاليا أسطورة شعبية فى أسبانيا يطلق عليه قصة (الصنم والملك وابنته) • وبعد ترجمة قصة (حى بن يقظان) الى الانجليزية التى قام بترجمتها (جورج كيث) اتخذها الكويكريون (طائفة مسيحية) كتابا للوعظ الدينى لهم يتلى فى كنائسهم بانجلترا وأمريكا حتى اليوم •

وقصة (حى بن يقظان) كانت أول عمل عربى يترجم الى الانجليزية عام ١٧٠٨ م • عندما قام (سيمون أوكلى) أستاذ اللغة العربية بجامعة كمبريدج بترجمتها والقصة ترجمت الى العبرية عام ١٣٤٩ م • والى الهولندية عام ١٦٧٢ م • والى الألمانية عام ١٧٢٦ م • والأسبانية عام ١٩٠٠ م • والفرنسية عام ١٩٠٠ م وترجمت أيضا الى الروسية وصدرت منها عدة طبعات ومازالت تصدر طبعاتها بشتى اللغات التى ترجمت اليها •

والقصة تدور فى جزيرة مهجورة من جزر الهند جنوب خط الاستواء حيث ولد طفل من طينة تخمرت على مر السنين بدون أب أو أم • ويقال أن أمه كانت أميرة مضطهدة فى جزيرة مجاورة للجزيرة المهجورة • وتركت وليدها فى (صندوق) مقفل وألقت به فى اليم لينجو من القتل • وهذه البداية فى القصة تذكرنا بقصة سيدنا موسى • الا أن الطفل (حى بن يقظان) ألقت به الأمواج على شاطىء الجزيرة المهجورة وتبنته غزالة أرضعته وربته • وأخذ يحاكى أصوات الظباء ويقلد أصوات الطيور وسلوك الحيوانات التى تربى بينها • ولما شب أخذ يتأمل الكون من حوله ويسعى الى رزقه واهتدى الى النار سعيا للدفء والى طبخ الطعام واستخدام أدوات للصيد والقنص للدفاع عن نفسه من الحيوانات المفترسة • وصنع أدوات لاستخدامها فى الحياة المعيشية • وآدرك بالوقت الحياة وتعرف على عالمه وتوصل بفكره الى معرفة الله الخالق لهذا العالم • ثم أخذ يتأمل فى آلاء الله سبحانه وانقطع فى مغارة وصام مدة أربعين يوما ليفصل عقله ببدنه عن العالم الخارجى بعدها التقى فى الجزيرة بشخص يدعى (آسال) وكان قد أتى اليها من الجزيرة المجاورة وأخذ يعلم (حى) الكلام • ثم أخذه معه الى جزيرته وكان يحكمها صديق (آسال) وهو الملك الصالح (سلامان) • وكان يسكن فى هذه الجزيرة أناس كانوا

يمارسون حياتهم اليومية والبيع والشراء ويؤدون الفروض الدينية ويمارسون العبادات • وحاول (حى) و (آسال) اقناعهم بأن حياتهم هذه محدودة لأن ممارستهم للدين والدنيا لن توصلهم الى السعادة الكاملة التى كان (حى) يشعر بها عندما كان منقطعا فى جزيرته المهجورة بعيدا عن لغط الدنيا وممارسة الحياة العادية واليومية كما فى جزيرة صاحبه • وأخذ (حى) فى شرح وتعليم الناس هذه الحقيقة التى اكتشفها ابان خلواته وتأملاته • وكان يجادلهم لكن الجدل معهم أوصله الى حالة من الشك وانصرف الناس عنه الى أعمالهم وحياتهم اليومية لأنهم مكبلون بحواسهم • بعدها عاد (حى) ومعه رفيقه (آسال) الى الجزيرة المهجورة وانقطعا عن العالم الخارجى • ومارسا فى عزلتهما التأمل لينعما من خلاله بمتعة فيض الاشراق الألهى الذى لا يدركه الا الخاصة وهم نادرون •

وابن طفيل من خلال سرده لوقائع قصته نراه قد جعل (حى) يكتشف أن الأرض كروية عندما كان ينظر الى الشمس والقمر وسائر الكواكب الأخرى فرآها كلما تطلع من جهة المشرق وتغرب جهة المغرب • وعندما كان يتطلع الى هذه الكواكب عند مطلعها فى السماء لاحظ أن كوكبا كان يبزغ من بينها ويطلع على دائرة كبيرة ورأى كوكبا آخر يطلع على دائرة صغيرة • واذا كان يرى طلوعهما معا كان يرى غروبهما معا •

وكان هـذا يحدث مع بقية الكواكب التى كان يراقبها فاهتدى من هذه الظاهرة الى أن الفلك على شكل كرة .

وقصة (حى بن يقظان) غطت على شهرة ابن طفيل كشاعر مطبوع ويعتبر من فطاحل الشعر العربى فنراه يكتب قصيدة من أربعين بيتا يهيب بمسلمى الأندلس للجهاد ودعـا طوائف عرب افريقيا لنصرة أهلهم بالأندلس قائلا :

اقيموا صدر الخيل نحو المضـارب
لغزو الأعـادى واقتنـاء الرغـائب

وقال ــ أيضا فيها ــ :

الا فابعثوهـا همـة عربيـة
تحف باطراف القنـا والقواضـب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
وفيئوا الى التحقيـق فيئة راغب

ولابن طفيل شعره فى الغزل الرقيق فنراهيقول :

ولـما التقينا بعد طول تهاجر
وقد كاد حبل الود ان ينصر ما
فقالت وقد رق الحـديث وابصرت
قـرائن احـوال اذعن المكتمـا

ومن أشعاره فى الزهد قوله :

يا باكيا فرقة الأصحاب عن شحط
هلا بكيت فراق الروح للبـدن

نور تردد فى طين الى اجـل
فانحـاز علوا وخـلى الطين للفـن

ان لم يكن فى رضى الله اجتماعهما
فيالهـا صفقـة تمت عـلى غبن

وهذه الأشعار تدل على ما كان لابن طفيل من ذوق أدبى رفيـع •

وابن طفيل فى أواخر حياته انقطع الى العلوم الالهيـة وأخذ يجمع فى كل كتاباته بين الحكمة والشريعة • ولم يبق مما كتبه سوى قصته الخالدة (حى بن يقظان) التى ترجمت الى شتى اللغات لتطالعها الملايين بشغف بالغ •

ابـــن فرنـــــاس

رائــــد الطـــيران

هو أبو القاسـم عبـاس بن فرناس بن ورداس التكرنى القرطبى (توفى عام ٢٧٤ هـ / ٨٨٥ م) ويمتد نسبه الى قبائل البربر بشمال افريقيا الذين نزحوا الى جنوب الأندلس الا أنه عاش فى قرطبة وعاصر الدولة الأموية الناهضة هناك .

كان ابن فرناس عبقريا متعدد المواهب ويعتبر بحق عالمـا موسوعيا من الطراز الأول . فكان شـاعرا وأديبا وفلكيـا ومهندسا ورياضيا وطبيعيا وكيميائيا وموسيقيا . لكن محاولته الطيران قد طغت على شهرته لدى الكثيرين من القراء وجعلت منه أسطورة عالمية تروى على مر الزمان . وهذه الرواية لايمكن أن تسقط من تراثنا العلمى عالمـا عبقريا كعباس بن فرناس . لأن اسمه اقترن بالحضارة الاسلامية عامة والحضارة الأندلسية خاصة . فقد كان نمطا فريدا بين معاصريه شغلهم بأبحاثه وأعماله

وبهرهم باختراعاته وتعدد مواهبـه • حقيقةلم يترك لنا أعمـالا تراثية سوى ما رواه الغير عنه فى كتب الآخرين وما تناقله الرواة من أشعاره وما حكوا عنه من قصص ونوادر • وهذا ان دل فانما يدل على مكانتـه وتأثيره فىعصره حتى نجد المؤرخـين يطلقون عليه حكيم الأندلس • فشهرته فى العلوم توارت وراء محاولته الرائدة للطيران كما سـبق وأن أشرت • لأن هـذه المحاولة المثيرة كانت تنم عن روح المخاطرة لدى عالمنـا الفذ وجرأة وثقة فى النفس لا تمارى •

وقصة محـاولته الطيران فى الجو قد وصفها ابن سـعيد المغربى بقوله : « احتال فى تطيير جثمانه فكسا نفسه بالريش على سرق الحرير • فتهيأ له أن استطار فى الجو واسـتقل فى الهواء محلقا فيه حتى وقع على مسافة بعيدة » • والمقرى فى كتابه (نفح الطيب) نراه يقول : « كسا نفسـه بقواد النسر وصنع لنفسه جناحين على هيئة أجنحة الطيور وربطها فى جسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين » • وهذه المحـاولة الصعبة قام بها عالمنا من فوق سطح جامع قرطبة الكبير ويقال من فوق مكان عال بالرصافة أحد ضواحى قرطبة حيث اندفع من حالق فى الهواء فحلق ، وقد احتشد النـاس ليروه • وكانت هـذه المحاولة قد أراد بها ابن فرناس تقليد الطيور فى طيرانها • ورغم

فشلها الا أنه طار لمسافة بعيدة هوى على الأرض وأصيب عجزه ورقد فى الفراش لعدة أسابيع ليعتبر بحق أول رائد للطيران فى التاريخ • وكان خطـأ ابن فارناس أنه لم يضع ذنبا (ذيلا) له ليحفظ توازنه فى الجو أثناء الطيران • فلم ينتبه لأهميته بالنسـبة للطيور كالدفـة فى السفينة • وكانت نظريتـه أن الجسم لابد وأن يكون خفيفا للتغلب على الجاذبيـة الأرضية فعندما يلقى بنفسه مندفعا الى الأمام من شاهق فسيحمله الهواء على متنه • وفعلا لمـا اندفع من المكان العالى فى الجو سار مسافة كبيرة محلقا لكن عـدم وجود الذيل كان عقبة له وهو محلق ، لأنه كان يفتقد القدرة على التوجيه أو الهبوط بسـلام مع الاحتفاظ بتوازن جسمه أثنـاء هـذه العمليـة • فالذيل بالنسبة للطائرة كالمظلة بالنسبة للهابطين من الجو بالمظلات • ومحاولة ابن فرناس ــ حاليا ــ تقلد ويمارسها الكثيرون فيما هو معروف بالطيران الشراعى المجنح (الطيران الخفاشى) ويمارس هذا الطيران على نطـاق واسع ومن فوق مكان عـال حسب نظرية ابن فرناس مع اجراء تعديل طفيف عليها بتركيب الذيل للآلة الحديثـة •

ومن دواعى فخر الحضـارة الاسلامية أن نجد أن رائد الفضـاء والطـيران هما عباس بن فرناس وبعده بقرن عـام

(٣٣٩ هـ / ١٠٠٣ م) . قام رائد آخر من خراسان بفارس هو أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى بمحاولة الطيران بجناحين من الخشب ربطهما بحبل وصعد فوق دارهالا أنه هوى فى محاولته أمام حشد من الناس فدق عنقه . ولهذا نجد الشاعر أحمد شوقى يشيد بالرائدين قائلا :

لم يركب الغرب متن الريح مبتدعا
ما قصرت عن مداه حيلة الناس

فان للشرق فضل السبق
للجوهرى وعباس بن فرناس

وعباس بن فرناس كان يتقن اللغة الاغريقية وترجم عنها الى العربية كتبا فى الفلسفة والموسيقى . لهذا وصفه أبو سعيد المغربى بأنه كان فيلسوفا حاذقا . ولقبه معاصروه بالحكيم . واذا كانت محاولته فى الطيران تنم عن عزيمة وجرأة ومخاطرة الا أنه كان يتسم بالرقة وعذوبة اللفظ والحس الوجدانى فى أشعاره وموسيقاه . فلقد كان موسيقيا بارعا فى الضرب على آلة العود وكان يؤلف الألحان ويغنيها أمام أمير قرطبة واشتهر عنه القيام بتعديل ألحان زرياب أشهر الملحنين والمغنين فى الأندلس بل فى التاريخ العربى كله . وفى الشعر الغنائى كان يغير فى الأشعار لتتلائم مع ايقاع الألحان التى كان يصيغها

بنفسه بل وكان يغنيها أحيانا ، وكانت ألحانه حسنة استهوت القيان فكن يغنينها ويضربنها أمام الأمير عبد الرحمن الأموى فكان يطرب لها وكان عندما يضرب على العود كان يلتزم بالسلم الموسيقى وتوزيع الألحان وقد وصف المقرى هذا بقوله : « كان يحل رموز اللغة الموسيقية وكان يطعم موسيقاه بالألحان العربية » ، وهذا ما جعل ألحانه تنتشر انتشارا واسعا فى ربوع الأندلس ولا سيما بعدما أعاد توزيع موسيقى وألحان زرياب .

وفى الشعر العربى كان عباس بن فرناس أول من أدخل علم العروض للفراهيدى فى بلاد الأندلس عندما أخذ يدرس كتابه (المثال من العروض) أمام الأمير الأموى والعلماء والشعراء ، وكان عباس بن فرناس له شهرته كشاعر للبلاط الأموى بقرطبة لدرجة من شدة ولع أميرها بأشعاره قال عنه : « لو زادنا شعرا لزودناه مالا » ، ويعتبر ابن فرناس رائدا من رواد الشعر التعليمى علاوة على أشعاره فى الوصف والنقد والهجاء والمديح والغزل والعشق ، وعندما صنع (ذات الحلق) وهو آلة فلكية تتكون من حلقات سبع متداخلة وقطر الحلقة ثلاثة أمتار ونصف وبوسط الحلقات كرة معلقة ترمز الى حركة الكواكب السيارة ، كانت هذه الآلة تستخدم فى الأرصاد الفلكية معتمدة على وقوع ضوئى الشمس أو القمر على الحلقات التى اصطفت بشكل معين لتحقيق الغرض منها وهو

قياس الظل ورصــد الأفلاك وقد قدمها الى أمير قرطبة وأرفق بها أبياتا من الشعر يصف عملها له قائلا :

فـاذا راته الشـمس فى آفاقها
بعثت اليـه بنورهـا الموزون

ومنازل القمر التى حجبت معـا
دون العيـون بكل طـالع حين

يبدون فيهـا بالنهـار كما بدت
بالليـل فى ظلمـاتهن الجـون

وقـام ابن فرناس بصنع الميقاتة وهى آلة لقياس الزمن معتمدة على الظل وقياسه بحيث يمكنهـا حسـاب الساعـات والدقائق والثوانى بالنهار وقد أهداها ـ أيضـا ـ الى الأمير ومعها أبيات من شعره يصفها فيها قائلا :

الا اننـى للديـن خـير اداة
اذا غاب عنكم وقت كل صـلاة

ولم تر شمس بالنهار ولم تنر
كواكب ليـل حـالك الظلمـات

يمـين امـام المسـلمين محمـد
تجـلت عن الأوقـات كل صـلاة

وقسمها الى مسافات متساوية على دائرة طولها . وكان

هدفه من صنعها هو تحديد أوقات الصلاة وكانت تمتاز عن ميقاتة بطليموس بأنها كانت تعطى الوقت ليلا ونهارا .

وابن فرناس كان عالما تجريبيا فنراه فى مجال الكيمياء الصناعية يقيم فى بيته مختبرا يمارس فيه تجاربه الكيميائية وجهزه بالآلات والأجهزة وكان قد صنع الزجاج الشفاف لأول مرة من الأحجار . كما كان يتقن فن سبك المعادن وصبها وتشكيلها فى قوالب خاصة . وهذا ما جعله يصنع تفاحة ذهبية نقش عليها أبياتا بالذهب وأهداها الى الأمير . وهذه الأبيات هى :

تفاحة مصغرة البعض
بخوفها من ألم العض

امنتها ذاك وكتبتها
حسنا بدا من ذهب محض

وقلت فيها الحق من بعد ذا
وما لقول الحق فى نقض

محمد أكرم مستخلف
من خلفاء الله فى الأرض

ويقصد بمحمد الأمير الأموى .

كان عباس بن فرناس فلكيا بارعا ومن شدة اهتمامه بالفلك طلب من الأمير عبد الرحمن أن يهبه (الدفتر الحاكم) فى الفلك

ليقارن ويضاهى رموزه ومصطلحاته بما جاء فى كتاب (المجسطى) لبطليموس • وهذه الدراسة الموسوعية جعلته يقوم بتشييد نموذج (ماكيت) للظواهر الفلكية والطبيعية وكان عبارة عن قبة سماوية عجيبة أقامها فى سقف بيته صنعها على هيئة السماء ورسم فيها النجوم والغيوم والبرق والرعد وجعلها صورة مجسمة • وكان من شدة حيلته وعبقريته أنه أحدث فيها برقا ورعدا صناعيا وجعل الماء يقطر منها كالأمطار •

وابن فرناس أول من اخترع قلم الحبر وكان وقتها شائع استعمال الأقلام والمحبرة فى الكتابة • فأراد أن يغنى الكتاب عن حمل الأقلام والمحابر معهم أينما كانوا • فاخترع اسطوانة تغذى بالحبر وجعل لها سنا مدببا تغذى بالحبر ذاتيا ويستخدم فى الكتابة والخط • ونقلت أوروبا عنه هذا الاختراع •

فعباس ابن فرناس أدهش علماء عصره ومعاصريه بالأندلس • وهذاما جر عليه نقمة علماء قرطبة عندما اتهموه بالزندقة والكفر لأنه يتمتع بقوى شيطانية خارقة وكانت تهمته الأولى أنه واسع الحيل • فنسبوا اليه السحر وكثر عليه الطعن فى دينه كما يقول النباهى فى كتابه (تاريخ قضاة الأندلس) • واتهم — ايضا — بأنه يقول (فعول فعيل) فى كل وقت • وظن

العلماء أن هذه طلاسم وتمائم لأن علم العروض للفراهيدى لم يكن معروفا فى بلاد الأندلس وقتها . فقدم الى المحاكمة فى جامع قرطبة وكان القاضى سليمان بن أسود الغافقى ، فبرأه . ولم يصلنا أخبار هذه المحاكمة ولا دفاع عباس ابن فرناس عن نفسه فى عصره رغم ازدهار العلوم بالأندلس وقتهـا الا أن هـذه المحاكمات كانت وراءها دوافع سياسية وأحقاد شخصية ولاسيما وأن ابن فرناس قـد ذاع صيتـه بعد محاولتـه الطـيران . وكانت قد شاعت بدعة محاكمة العلماء والفلاسفة والفقهـاء . وأصدق وصف له ما قاله التوحيدى عنه من أنه (أبدع ابداعات لطيفة واختراعات عجيبة) . فلقد كان نسيج وحده بين علماء الفـكر العظـام ابان مطلع النهضـة العلميـة الكبرى فى بلاد الأندلس .

ابن فضلان

سفير الاسلام ... ورحلته الاسلامية الخالدة

تعتبر هذه الرحلة من أدب الرحلات ومن الرحلات التاريخية التى ألقت ضوءا على فترة مفقودة من التاريخ الروسى . لهذا اعتبرها المستشرقون والمؤرخون والجغرافيون الروس من أهم المصادر المعلوماتية والتاريخية عن بلادهم ابان القرن العاشر . لأن هذه الرحلة الخالدة بدأت يوم الخميس ١١ صفر عام ٣٠٩ هـ / ٢١ يونيو ٩٢١ م . عندما طلب ملك الصقالبة من الخليفة المقتدر العباسى ارسال بعثة بها فقهاء ليفقهوا قومه فى الاسلام ومعها أدوية وأموال ليبنى حصنا يقيه من ملك الخزر اليهودى . واستغرقت هذه الرحلة ١١ شهرا .

ورحلة ابن فضلان (أو رسالة ابن فضلان) كانت منسية الى أن عثر على نسخة خطية منها فى خزانة للمخطوطات فى مدينة

مشهد الايرانيـــة يرجع تاريخها الى القرن الـ ١١ الهجرى وكان ياقوت الحمـــوى والاصطخرى والمســعودى وابن حوقل قد أشاروا اليها فى كتبهم • وقد حقق المخطوطة المستشرق الروسى (نيكتيا اليسيف) والمستشرقان الانجليزيان دانلوب وفراى •
وكان (فرهن) قد نشر دراســة عن الخزر باللاتينية استعان فيها بما كتبه ابن فضـــلان وترجمها (نيلكسون) للانجليزيــة و (رامسون) للروسية ونشر (فرهن) دراسة عن شعب البلغار على نهر الفولجا وسبقه (وستنفيلد) بتلخيص الرحـــلة ونشرها بالألمـــانية •

ومخطوطة (مشهد) حصل عليها معهد الدراسات الشرقية ببطرسبرج واعتبرهاالروس من أهم وثائقهم التاريخية والسياسية وقـــام المستشرق الروسى (خارتوف) بترجمتهـــا بالكامـــل عام ١٩٥٧ الى الروسية •

وابن فضلان فى رحلته وصل بخارى فوصف نقودها من الدراهم النحاس والصفر ووصف دراهم خوارزم بأنها مزيفــة وهى من الرصـــاص وليست من الدراهم الطازجة (النقية) • أما أهل الجرجانية فهم (أوجس الناس كلاما يتبرأون من أمير المؤمنين على بن أبى طالب) • وجرجان باب من الزمهرير حيث يسقط الثلج ومعه ريح عاصف شديد •• والله لطف بهم فى

الحطب وأرخصه لهم • وكان ابن فضلان لما يخرج من الحمام ليدخل البيت ينظر الى لحيته وهى قطعة واحدة من الثلج حتى كان يدنيها من النار •

ورحل من جرجان الى بلاد الأتراك • وهى برية قفر بغير جبل وسط الثلوج والبرد حتى كاد أن يتلف • وشعب الترك عدة قبائل بدوية كانت تعيش بين حدود الصين والخزر • وكان الأتراك كفارا والعرب كانوا يعتقدون أن حدودالعالم تنتهى عند بلادهم الأن بعدها بحرا • والصقالبة الذين زارهم ابن فضلان كانت بلادهم تمتد من شمال أوربا حتى حوض نهر الفولجا (اتل) وكانت عاصمة مملكتهم (قازان) التى كانت تبعد حوالى ستة كيلو مترات شمال هذا النهر •

وكان العرب فى كتاباتهم يطلقون على مملكة الصقالبة بلاد البلغار (حاليا قازاخستان) • وفى الأندلس كان الأندلسيون يطلقون على كل عبد يأتيهم من شمال أوربا أنه من الصقالبة • أما شعب البلغار فكان عدة قبائل تعيش حول نهر الفولجا فى منطقة الخزر شمال شرق بحر قزوين بآسيا ثم رحلت قبائلها بمرور الزمن واستقرت فى شرق أوربا بالبلقان مكونة دولة بلغاريا •

وتقابل ابن فضلان مع قبائل الترك الغزية ووصفهم بأنهم

بدو رحل لهم بيوت شعر ويتخذون من رؤسائهم أربابا وأمرهم شورى بينهم • ولا يستنجون أو يغتسلون من جناية ولا تستتر نساؤهم ولا يعرفون الزنا • ولا يصل الواحد الى امرأته حتى يوفى الصداق بعدها يأخذها من بيتها فلا يمنع • واللواط عندهم عظيم • واذا مرض تركى لا يقربه أحد من أهل بيته الا جواريه وعبيده ويعزل فى خيمة يترك بها حتى يبرأ أو يموت • وأن كان عبدا ألقوا به فى الصحراء ورحلوا عنه • والترك كلهم ينتفون لحاهم والميت يدفنون معه قوسه ومنطقته ويقتلون دوابه ليأكلوا لحومها الا الرأس والقوائم والجلد والذنب فيصلبونها على خشب قائلين : هذه دوابه يركبها الى الجنة •

ووصلت قافلة ابن فضلان الى قبائل الترك البنجاك وأفرادها سمر فقراء وأغنامهم ترعى ما بين الثلوج تبحث بأظافرها عن الحشيش • ثم وصل الى قبائل الباشنرد (وهم أشر الأتراك وأقذرهم •• يأكلون القمل وكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الاحليل ويعلقها عليه فاذا أراد سفرا أو لقاء عدو قبلها وسجد لها) • ولهم اثنى عشر ربا ويعبدون الحيات والأسماك والطيور •

ولما وصل ابن فضلان الى ملك الصقالبة قدم له خطاب الخليفة العباسى والهدايا وأكرم وفادة البعثة •

وهناك رأى ابن فضلان أفق المساء قبيل مغيب الشمس قد احمر احمرارا شـديدا وسمع بالجو أصواتا شديدة فرفع رأسه فشاهد غيما أحمر مثل النار قريبا منه • ولمـا دخل القبة (الخيمة) سمع الآذان فظن أنه أذان العشاء الآخرة فسـأل المؤذن فقال له بأنه أذان الفجر • فقال ابن فضلان • والعشاء • أجابه كما ترى نصليها مع المغرب • لأن الفجر فعـلا قد طلع والليل قصير جدا هناك • ونظر الى السماء فوجد النجوم قليلة جدا والشفق الأحمر لا يغيب البتة والليل قليل الظلمـة يعرف الرجل فيه الرجل والقمر يتوسط السماء ولا يطلع الا ساعة •

ووصف ابن فضلان هذه البلاد وصفا دقيقا فهى كثيرة الحيات وتفاحهم أخضر حامض ، ونخيلهم عندما يثقب فى سيقانه ينساب منه ماء يجمعونه وهو أطيب من العسـل لكن كثيره مسـكر • وليس لهم زيت ولا دهن • وأدهانهم دهن السـمك فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفرا • ويطبخون اللحم بالشعير ويأكلون اللحم ويقدمون الشعير للجوارى • وكلهم يلبسـون القلانس ولمـا يقابلون الملك يخلعونها ويجعلونها تحت ابطهم • واذا مات الرجل ورثه أخوه دون ولده واذا سقطت صاعقـة على بيت تركوه على حـاله لا يقربونه حتى يتلفـه الزمان • ويغتسلون فى النهر عراة رجالا ونساء ولا يزنون وعقاب الزانى

أو الزانية القتل . وهم تجار يجلبون الغنم من الترك وفراء السمور والثعالب السوداء من بلاد (يسو) . والميت يغسلونه غسل المسلمين ويبكيه الرجال سنتين ويضرب عبيده أجسامهم بسيور الجلد .

ورأى ابن فضلان الروسية وكانوا قد نزلوا بتجارتهم فى بلدة على نهر الفولجـا . والمرأة على ثديها حقة (وعـاء) مشدود من الحديد أو الذهب أو الفضـة (وهم أقذر خلق الله لا يستنجون ولا يغتسلون من جنابة أو طعام . وبيوتهم من الخشب والبيت الواحد يجتمع فيه العشرة والعشرون ومعهم الجوارى . وينكح الرجل جاريتـه ورفيقـه ينظر اليه وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال . وكلهم يغتسلون من قصعة ماء واحدة يتمخطون ويبصقون فيها . والميت يحرقونه ويحرقون جاريته معه بعدما ينكحونها جميعـا .وملك الروس يجلس على سريره بقصره وعليه أربعون جارية وقد يطىء واحدة منهن بحضرة أصحابه . ولا ينزل من سريره ولو قضى حاجته أتوه بطشت . ويركب أو ينزل من على دابته وهو فوق السرير .

أما ملك الخزر فهو الخاقـان الأكبر لا يظهـر لشعبـه ولا يكلمهم واذا مات بنيت له دار كبيرة بهـا عشرون بيتـا يحفرون بكل منها قبرا . واذا دفن تضرب أعناق من دفنوه حتى

لا يدرى أحد أين قبره من تلك البيوت العشرين • ومدة حكم الملك أربعون عاما ولو زاد يوما قتلته الرعية ولو انهزم قواده أحضرهم ومعهم نساؤهم وأولادهم ومتاعهم ودوابهم وأسلحتهم فيوهبهم بحضرتهم لغيرهم وربما قطعهم أو صلبهم أو علقهم من أعناقهم فوق الأشجار • ومدينة هذا الملك على جانبى نهر الفولجا (اتل) • والمسلمون فى جانب عليهم رجل مسلم من غلمانه يقضى فى أمورهم وكل أحكامهم مردودة اليه •

ابن ماجد

أمير البحر العربي

ابن ماجد هو شهاب الدين بن أحمد بن ماجد السعدى النجدى . ولد بجلفار على ساحل عمان فى جنوب غرب الجزيرة العربية ابان القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) . وأصل آبائه من بلاد نجد شرق الجزيرة العربية . ولا يعرف تاريخ مولده أو وفاته . وصف أعماله المستشرق الأمريكى (فليب حتى) فى كتابه (تاريخ العرب) بأنها أعمال رائعة ذات دلالة قصوى من الناحيتين النظرية والعملية فى الملاحة البحرية . وهذا ما جعل البرتغاليين يصفونه فى كتاباتهم بأمير البحر العربى وأسد البحار ورائد الملاحة الشراعية بلا منازع .

ورث ابن ماجد فنون البحر عن أبيه الذى كان يلقب بربان البحرين ، البحر الأحمر وبحر العرب . وجده الربان عمر بن فضل الذى خلف من بعده رسالة عن أصول الملاحة فى البحر

الأحمر أوقفها لخدمة مراكب الحجاج • وطور ابن ماجد هذه الرسالة ووضع فيها خبراته التى اكتسبها ونظمها شعرا وعرفت بالأرجوزة الحجازية حيث تحدث فيها عن الطرق الملاحية والشعب المرجانية فى بحر القلزم (الأحمر) •

ومما جعل ابن ماجد يكتسب الخبرات العريضة فى فنون الملاحة وعلوم أعالى البحار ازدهار التجارة العالمية بين الشرق الأقصى والهند ، وبين الخليج العربى وساحل عمان وشرق افريقيا • وكانت السفن العربية تجوب هذه البحار تحمل التجارة والتجار شرقا وغربا فى رحلات منتظمة • فوصلت الى الصين فى أقصى الشرق ولفت حول جنوب افريقيا قبل أن يكتشف فاسكو دى جاما عام ١٤٩٢ م طريق رأس الرجاء الصالح • حتى يقال أنه استعان بخرائط عربية للدوران حول جنوب افريقيا • فلما وصل ساحل شرق افريقيا وجد سفنا وموانىء عامرة بالتجارة كما هو ثابت فى يومياته • لكنه ظل عدة شهور هناك لا يستطيع الابحار فى بحرى الزنج أو العرب ليصل الى الهند • فاستعان بابن ماجد ليرشده الى الطرق البحرية • وقاد سفينة فاسكو دى جاما حتى وصل بها الى ميناء قاليقوط (كالكتا) فى الهند عام ١٤٩٨ م • وأعطى ابن ماجد آلاته وخرائطه الى الملاح البرتغالى • واستعان بها البرتغاليون بعد ذلك فى استعمار جنوب الجزيرة وبعض أجزاء

من الخليج وشرق الهند وجزر المحيط الهندى وشرق افريقيا حتى سيطروا بعدها على التجارة الشرق أقصية •

وابن ماجد نراه لم يختزن علمه فضمنه ثلاثين مؤلفا عدل فيها فى آراء الأولين وزاد عليهم بما اكتسبه من علم وخبرة • واعتبرهم مؤلفين وليسوا مجربين • وأهم كتبه كتاب (الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد) وهـذا الكتاب علق عليـه (جبرييل فران) أحد خبراء علوم البحـار قائلا : بأنه رأى فيه أثرا يدعو الى الاعجاب حيث رآه فيه كاتبا وشاعرا •

والكتاب تناول تصنيف المعلمين (الربابنة) •• (فمنهم من يسلمون السفينة أحيانا ويخطئون أحيانا أخرى •• ومنهم من يعلمون ولم يخف عليهم شىء من مشكلات البحر • فوصفوا علما ينتفع به الناس فى حياتهم وبعد مماتهم • وشكرهم الصديق والعارفون والمخالفون • وسرق حسادهم من تصانيفهم وهؤلاء هم الأعلون درجة) • لهذا نجده يضـمن هذا الكتاب نصائحه الى من يركبون البحر من المعالمـة (المعلمين) • ويؤكد على معرفتهم بالمنازل والأخنان والدبر والمسافات وحلول الشمس والقمر والأرياح ومواسمها ومواسم البحر وآلات السفينة • وكيفية التعرف على مطـالع النجوم والبرور واشاراتها كالطين والحشيش والحيات (الأسـماك) والخيـات والأريـاح فى

البحار • ويتناول الكتاب ـ أيضا ـ تاريخ الملاحة وعلاقتها بالفلك والنجوم فى سماء الخليج العربى أو بحر الزنج أو البحر الأحمر أو بحر العرب أو المحيط الهندى • كما أكد على المعلم بأن « يتأمل السفينة (يفتشها) قبل ابحارها لمعالجة الخلل قبله • ولا يشحن سفينته طمعا بأكثر من اللازم حتى لا تتعرض للغرق • ويضع على ظهرها عودا عليه قطعة من قماش للتعرف على اتجاه الريح (يعرف حاليا بكم الريح) • كما تحدث عن الحقة أو الدايرة (البوصلة) ونصح المعلم بأن يتفقدها ويتأكد من ثباتها فى مكانها • ويتأمل الجاه (النجم القطبى الشمالى) بالليل • ويطابقه مع اتجاه الحقة حتى لا يكون مجرى السفينة بالنهار مختلفا عن مجراها بالليل فيطول الطريق • وطلب من المعلم تفقد الركاب والعساكر (الحراس) والتعرف على قدرتهم لمساعدته فى أى أزمة تواجهها المركب • ويكون حازما مع الركاب ويستمع الى أقوالهم وشكاياتهم • ويعدل بينهم ولا يظلم أحداء كما يمنع جميع الركاب من المزاح فى البحر ولا ينفرد برأى بل يستشير • ويكون نومه قليلا • كما شدد على طهارة المعلم بقوله : « اذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة • فان فى السفينة ضيفا من أضياف البارى » • ووصاه ـ أيضا ـ بمراقبة عامل السكان (الدفة) طوال الرحلة • وألا يركب المعلم السفينة الا آخر الركاب • وقبل الخروج الى البحر عليه أن يقرأ الفاتحة بصوت مسموع • وينهى ابن ماجد نصائحه بقوله : « فان فعلت

جميع ما أمرتك به وأخطأت فأنا الملوم حيا وميتا . وأما القضاء والقدر فهو غالب لأنه من الله تعالى » .

وابن ماجد فى كتابه (ثلاث أزهار فى معرفة البحار) بين الآلات الملاحية التى يضعها المعلم فوق سفينته . ومنها الرهنامج (الراهنامك) وهو كتاب الطريق أو المرشد الملاحى ، والحقة (البوصلة) ، وأحجار الصيد (لصيد الأسماك) ، والبلد (آلة من الرصاص بها خيط لقياس أعماق المياه) ، وفانون لاعطاء الاشارات الضوئية المتعارف عليها فى البحر .

وفى أرجوزته (السبعية) بين المراسى على الساحل الغربى للهند التى تقع على بحر العرب ، والطرق البحرية اليها . وهذه الأرجوزة لها أهميتها . فالساحل الغربى هذا كان فى طريق القوافل التجارية العربية وقتها . لأن التجارة العالمية مع الهند كانت مزدهرة على هذا الساحل . وكانت موانيه تموج بالجاليات العربية والفارسية .

أما ألفية ابن ماجد الشعرية التى سماها (حاوية الاختصار فى أصول علم البحار) فهى تتضمن أصول وقواعد علوم البحار وعلامات الاقتراب من الشاطىء ، وكيفية التعرف عليها . ومنازل النجوم والأبراج الفلكية وكيفية الاسترشاد بها .

والمسالك والطرق البحرية وحساب السنين كما حدثنا فيها عن السنة القمرية والسنة الشمسية بقوله :

فالسـنة الناقصـة القمريـة
والزايـدة تعـرف بالشمسـية
والقبط والفـرس معـا والروم
عـامهم يزيـد عنهـم يـوم

وحدثنا - أيضا - فيها عن كيفية قياس المسافات البحرية والطرق البحرية بين سواحل شرق افريقيا والهند وبلاد جنوب الجزيرة قائلا :

أمـا المسـافة بين بـر العـرب
وبين بـر الهنـد فهى عنـدى
وعنـد كـل الخـلق اربعينـا
بين زجـد والحـد يافطينـا

ويقصد (بأربعينا) أى أربعين يوما لأن المسافات الطويلة كانت تقاس بطول الأيام • (وزجد) مرسى بالهند (والحد) مرسى بجنوب الجزيرة العربيـة • كما حدثنا عن انغلاق البحر المحيط بسبب الرياح الموسمية والتيارات البحرية قائلا :

فغلقـه يمـكث ربع عـام
مـدة تسـعون مـن الأيـام

وأخيرا .. هذه ملامح شخصية ابن ماجد الذى وصفه المستشرق الفرنسى (جابرييل فيران) بأنه رائد علوم البحار ، وأول من وضع أسس المرشدات البحرية الحديثة . فنقلها عنه الأتراك والأوروبيون ووضعوا على هديها فنون الملاحة الدولية وقوانينها . هذا ابن ماجد الذى قاد فاسكو دى جاما حتى أوصله الى ميناء قاليقوط (كالكتا) بالهند . ولما وصلا قتله الملاح البرتغالى بعدما استولى على خرائطه وآلاته . والآن كما يقول (برتون) يقرأ بحارة شرق افريقيا والجزيرة والخليج الفاتحة على روح الشهيد ابن ماجد قبل ابحارهم ترحما عليه لأنه بعلمه جنبهم آهوال ومخاطر البحر .

أبــن النفيـــس

آخــر عمالقــة الطب الاســلامى

كان علاء الدين ابن النفيس مجددا فى الطب بعد أفول الحضارة الاسلامية فى بغداد • لهذا يعتبر آخر الرعيل الأول من علماء المسلمين بناة الحضــارة العظــام • لأنــه ولد عــام ٦٠٧ هـ ـــ ١٢١٠ م بدمشق • وما بعث على شهرته هو مجيؤه من الشام الى مصر عام ٦٣٣ هـ ـــ ١٢٣٦ م أيام عصر السلطان الأيوبى الكامل محمد حيث كانت مصر ملاذا للعلماء من المشرق الاسلامى الذين فروا من التتار وموردا لعلمــاء المغرب الذين هجوا من القلاقل وقتها فى بلاد الأندلس وشمال افريقيا • فلهذا كان يدرس الفقه فى المدرسة المسرورية علاوة على ممارســته للطب • وعاصر صــدر العصر المملوكى حتى عصر السلطان المنصــور قلاوون • كما عاصر هجوم الصليبيين على دميــاط وفارسكور وأسر لويس التاسع فى المنصورة •

وكان أعزب لم يتزوج لهذا كان فاتحا داره لأهل العلم

والطب ليتدارسوا معه • ومن عادته عند كتابة تصانيفه أن يضع أمامه كثيرا من الأقلام المبرية حتى لا يضيع عليه الزمان فى برى القلم • وكان يدير وجهه الى الحائط ويملى خواطره ويصنف كتاباته بلا مراجعـة لثقته فيما أملاه •

وابن النفيس كان طبيبا موهوبا يمارس عمله فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة • وهـذا البيمارستان كان قد أقامه الناصر صلاح الدين فى قصر من قصـور الفاطميين ولهذا أطلق عليه البيمارستان العتيق • ثم تولى بعده رئاسة البيمارستان المنصورى الذى أنشأه المنصور قلاوون • واستمر به الى أن توفى عـام ٦٨٧ هـ — ١٢٩٠ م • حيث أوقف عليه داره ومكتبته التى كانت تضم كتبه • ومنها كتابه شرح تشريح القانون وهو أشهر كتبه والمهذب فى الكحل والشامل فى الطب وشرح الفصـول لأبى قراط وثمار المسائل وكتاب النباتات فى الأدوية المفردة وجامع الدقائق فى الطب وكتاب الشافى ورسالة فى أوجاع الأطفال • وهـذه الكتب حاليا فى عـدة مكتبـات فى الفاتيكان وبرلين وآياصوفيا •

وكان من عادة ابن النفيس الجـلوس مع الصـيدلى فى الصيدلية كعادة أطباء زمانه •• ليتشاور معه فى علاج مرضاه • وكان يهتم بالعلاج بالأغذية متحاشيا وصف الأدوية كلما أمكن •

فكان يصف البليلة لعلاج قرحة المعدة والقطماج (اللحم المتبل) لمرض الهواء والخروب للاسهال . وقد ضج منه العطار الشرابى (الصيدلى) قائلا : اذا أردت أن تصف مثل هذه الوصفات فاقعد على دكان اللحـام (الجزار) . أما اذا قعـدت عندى فلا تصف الا السكر والشراب والأدوية .

وابن النفيس كان يعتبر التشريح فنا لا علما . وتجـاهل تاريخ الطب فى العصور الوسطى أنه أول من اكتشف الدورة الدموية الصـغرى المعروفة حاليا بالدورة القلبيـة الرئويـة التنفسية . وقد خالف جالينوس وابن سينا عندما قالا أن الدم بالقلب يمر من البطين الأيمن الى البطين الأيسر . فقال معلقا : (الدم كما ظنه جالينوس) . وأردف قائلا : (فان صمام القلب مستحصف (مستحكم) وجرمه غليظ . فلابد أن يكون هذا الدم اذا لطف نفد فى الوريد الشريانى الى الرئة ليصـل الى التجويف الأيسر من تجويف القلب وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد فيه الروح وما بقى منه أقل لطافة تستعمله الرئة فى غذائها) . وهذا وصف دقيق للدورة القلبية الرئوية للتنفس كما نعرفها الآن .

وكتاب شرح تشريح القانون الذى جاء فيه هذا الاكتشاف وكان سببا فى شـهرة ابن النفيس كان قد ترجم الى اللاتينية عام ١٥٤٧ م . وعند اكتشاف نظرية ابن النفيس فى مطلع هـذا

القرن فى كتابه ظهر للعالم أنه سبق علماء القرن الـ ١٦ الذين ادعوا اكتشافهم لها أمثال سريفيتو وآخرهم هارفى • ودحض بعض مؤرخى الطب فكرة سبق ابن النفيس لهم لكن آخرين من الثقات أيدوا هــذا الســبق أمثال أنجلز وجارلند وكرامبــار ومايرهوف • حتى دائرة المعــارف البريطانية أكدت مصداقيــة ابن النفيس فى اكتشافه ولا سيما وأنه أورد نظرية أخرى مؤكدا دراسته للقلب والدورة الدموية عندما بين أن الأوعية الدموية داخل عضلة القلب تغذيها بالدم • كما وصف الشريان الاكليلى وفروعه بالتفصيل فى كتابه • وقد خالف جالينوس وابن ســينا اللذين قالا بأن القــلب يتغــذى من الدم فى تجريفــه • لكن ابن النفيس قال : (غذاء القلب انما هو الدم المــار من العروق المــارة فى جرمه) • وهــذه قصة اكتشاف أخرى لم ينتبه اليها مؤرخو الطب رغم أهميتها • ولم ينتبه اليها سريفيتو ولاهار فى اللذين أشاد بهما المؤرخون باكتشافهما كما ادعوا •• للدورة الدموية الصغرى •

وصدق ابن النفيس عندما قال : (لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها) • وهذا ما كان •

ولمــا جاء أجله وهو مريض على فراش الموت • أشــار عليه تلاميذه الأطباء بتناول قليل من الخمر لكنه رفض قائلا : (لا ألقى الله تعالى وفى باطنى شىء من الخمر) •

ابـن الهيثـم

عبقرى المنـاظر ورائـد علم الضـوء

لا أكون مغاليا بل محقا عندما نصف ابن الهيثم بأنه رائد علم الضـوء بلا منازع فى الطبيعة • لأن أبحاثه فيه مهدت بل أخذها عنه علماء الطبيعة فى مطلع عصر النهضـة وهذا ما يؤصل مكانته العلمية فى تاريخ العلوم • لأنه وضع أسس علم الضـوء الذى واصل علماء أوربا أبحاثهم فيه على هدى نظرياته وتطبيقاته المعروفـة •

وابن الهيثـم هو أبو الحســن بن الهيثـم ، ولد عـام ٣٥٦ هـ ــ ٩٦٥ م وتوفى بالقاهرة عام ٤٣٠ هـ ــ ١٠٣٩ م • وكان عالم بصريات ورياضيات وفلكيا • عاش بالبصرة بالعراق ثم رحل عنها الى القاهرة ليعيش بقية حياته بها • وكان يشتغل بنسخ الكتب مما أمكنه اكتساب المعارف وتحصيل العلوم من هذه الكتب المنسوخة • وكان زاهدا فى المـال لدرجة أن أحد

الأمراء قدم له مالا فلم يقبله منه قائلا له : يكفينى قوت يومى وما زاد عن ذلك ان أمسكتــه كنت خازنك وان أنفقتــه كنت قهرمانك ووكيلك ، واذا اشتغلت بهــذين الأمرين فمن الذى يشتغل بأمرى وعلمى • فما قبل الا نفقة احتاج اليها ولباســا متوســطا •

وابن الهيثم أتهم بالكفر والزندقة فى العراق لمــا كتبه عن الابصار والرؤية لهذا أراد الهروب من هنــاك ومما ســاعده على المجئ الى مصر الخليفة الفاطمى الحــاكم بأمر الله الذى كان يحشد العلماء فى (بيت الحكمة) بالقاهرة وكان يشجعهم ، فلما سمع ابن الهيثم يقول : لو كنت بمصر لعملت بنيلها عمــلا يحفظ ماءه ويحصــل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فلقد بلغنى أنه ينحدر من موقع عال فى طرق الأقليم المصرى • فأرســل الحاكم بأمر الله فى طلبه وأستقبله عند خارج القاهرة ، ثم كلفه ببناء سد عند أسوان منفذا فكرته ، وأرسله ومعه الفعلة والمهندسون وحشد له كل الامكانيات للقيام بتنفيذ مشروعه الهندسى الكبير • ولمــا وصل ابن الهيثم ومعه البعثة الهندسية الى أسوان وجد المنطقة صخرية وفشل فى مهمته ، وعاد الى القاهرة وحدد الحاكم بأمر الله اقامته فى بيته وظل به لم يغادره حتى مقتل الخليفة •

لكن هذه القصة لم تنل من عظمة وتاريخ ابن الهيثم الذى

اشتهر اسمه بين معاصريه من العلماء واللاحقين له ، وحاليـا لا تخلو دائرة معارف علمية أو عالمية من الاشارة الى ابن الهيثم وأصبح اسمه متداولا وأطلق عليه Alhazeh فى اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى ، ويقصـد بهـذا الاسـم اللاتينى (الحسن) الذى اشتهرت كتبه فى أوربا ولا سـيما كتابـه (المناظر) فى الفيزياء ويقصد بالمناظر البصريات والضـوء فى الطبيعـة .

وهذا الكتاب خلد اسم ابن الهيثم ولا سيما عندما ترجم عام ١٥٧١ م الى اللاتينية لأول مرة ، ثم ترجم اليها أكثر من خمس مرات . وصـدرت هذه الترجمات اللاتينية تحت عنوان (كنوز البصريات) لمـا حواه الكتـاب من معلومات فريـدة وقيمة حول الضوء والبصريات . وأجمع علماء الغرب ومؤرخو العلوم ولا سيما فى البصريات على أن كتـاب (المناظر) لابن الهيثم أبدع ما كتب فى هـذا المجال لأنه عارض فيه وفند آراء فلاسفة الاغريق وأساطين العلم من قبله أمثال اقليدس وبطليموس وأرشميدس . وكانت آراؤهم كأنها تنزيل فى البصريات ، وظلت لعدة قرون متداولة وسـائدة الى أن ظهـر ابن الهيثم وفنـد معظمها وزاد عليها ، واشتهرت نظريته فى الابصار (الرؤية) فلقد كان العلماء يقولون قبله أن العين تطلق اشعاعا يقع على الجسم فتراه ، لكن ابن الهيثم لم يقبل هـذه الفـكرة وكان

ابن سينا والبيرونى وغيرهما من علماء المسلمين قد قبلوها •
الا أنه قال : ان الضـــوء عامل خارجى يحـــدث الاحســـاس
بالبصر ، أى يصدر من الجسم ويقع على العين فتراه • ويقصد
ابن الهيثم بهذا أن الصـــورة تأتى من الجسم المرئى الى العين
لتراه • كما وضح عدم ازدواج الصـــورة التى يراها الشخص
بعينيه قائلا بأنه يراها صورتين الا أن ملتقى الضـــوء بالعينين
يجعل الصورتين تنطبقان اذا كانتا متماثلتين مع انهما صـــورتان
لا صورة واحدة •

وابن الهيثم لنبوغه فى علم البصريات وصفته (دائـــرة
المعارف البريطانية) بأنه من بعد بطليموس لم يظهر من يجاريه
فى علم الضـــوء الا ابن الهيثم ، فأبحاثه ودراساته ووسائله فى
هذا العلم لا تعتبر مجرد معلومات زيدت بل هى أحداث قلبت
أوضاع علم البصريات وعدلت مجراه • لأنه كان عقلانى التفكير
يؤمن بالتفكير المنطقى ليصـــل الى معدن الحق • والحقيقـــة
فى نظره كانت واحدة ومتكاملة • لهذا عزف عن كل المعتقدات
وأساليب التشيع التى كانت سائدة فى عصره ولا سيما فى موطنه
البصرة حيث ولد وعاش صدر حياته ، وكان يمتاز عن الفلاسفة
بأنه عالم بصريات وفيزياء تجريبى ولم يكن فيلســـوف طبيعـــة
كابن سينا والفارابى والكندى ، فلقد حول الآراء الفلسفية الى
منهج هندسى طبقه فى علم الطبيعة لأول مرة • مما هداه الى

اماطة اللثام عن كثير من المجاهيل الطبيعية التى طرحها الفلاسفة الاغريق فى كتاباتهم ولم يهتدوا الى حلها بالرياضيات • وهذا سر شهرته واهتم الغرب بأبحاثه لأن آراءه فى كتاب (المناظر) على سبيل المثال هى محصلة للبراهين الرياضية واستقصاءات تجريبية قام بها • لهذا أعتبر مرجعا له أهميته لدى الغرب عندما ترجمه (فردريك رزنر) الى اللاتينية عام ١٥٧٢ م ونشره بسويسرا ، وأطلق على ترجمته (كنز البصريات) • لأن ابن الهيثم قسم فيه العين وتشريحها ، كما أن سنجريد يستبعد وجود نظير فى مؤلفات الاغريق لهذا الكتاب •

وابن الهيثم مازال يستحوذ على اهتمام الغرب حتى اليوم، فيرى (هـ • ونتر) يتحدث عنه وعن أبحاثه فى البصريات باستفاضة عام ١٩٥٤ ، و (أو • سى • مارشال) قد كتب كتابا عام ١٩٥٠ م عنه بعنوان (الهيثم والتلسكوب) ونشر (شوى) عام ١٩٥٠ م أبحاث ابن الهيثم عن القمر ، ونشرت جامعة بروكسل عام ١٩٣٥ م دراسة قيمة عنه نشرتها ضمن مجلد ضم تقارير العلوم •

وكتاب (المناظر) مصنف ضخم تضمن نظريات ابن الهيثم فى البصريات والضوء ورؤية الأشياء ، ونظرياته فى الضوء والألوان وانتشارهما فى خطوط مستقيمة • كما بنى نظرياته فيه على انعكاس الضوء وانكساره فى الأجسام

والهواء والســوائل ، فمن خلال هذه الأبحاث عن انكســار الضوء توصل الى نظرية ظهور (قوس قزح) التى حيرت العلماء منذ عصر أرسطو • كما كان له نظرياته حول انكسار الضــوء عندما يمر فى وسطين شفافين مختلفين فى الكثافة ، فنراه يقول معلقا بأن سرعة الضوء (فى المشف السائل الألطف أعظم من سرعته فى المشف الأغلظ) بهذا قرن بين سرعة الضــوء وكثافة السائل • وحينما ينفذ الضوء من المشف الألطف الى الأغلظ فانه ينعطف (ينحرف) نحو العمود (يطلق عليه فى علم الطبيعة المســتوى) •

واكتشف (نيوتن) و (هوبكنز) نظرية ابن الهيثم ، وعلل (نيوتن) هذا بأن الضــوء يتكون من جسيمات ، كمــا بين (هوبكنز) أنه مكون من أمواج ، لكن العالمين لم يختلفا حول نظرية ابن انهيثم بل أقراه فى مســألة انكسار الضــوء ولا سيما وأنه اكتشف القانون الثانى فى انكسار الضــوء وهو الشعاع الساقط عموديا على السطح الفاصل بين الوسطين من السقوط والشعاع المنكسر وبين أنهما يقعان فى مستوى واحد •

ومن اتقانــه وفهمه لمســألة انكسار الضــوء فى الهواء والسوائل فسر لنا رؤية الشمس بعد مغيبها وتواريها وراء الأفق ســاعة الغروب • وأوعز ظهور الشفق الشــمسى عند الغروب والشروق بأنه نتيجة لانعكاس الضوء فى الهواء وهذا ما أثبته

العلماء بالقيـاس والبراهين بعد ذلك • وكان اهتمامه بهـذه الظـاهرة الشفقية أنه كان فلكيا ورياضـيا بارعا • فكان عند ممارسته للفلك فى المرصد الحاكمى بالقاهرة يدرس انكسـار أشعة ضوء الشمس فى أجواء الأرض المختلفة واستعان فى عمله بمقياسات للشفق عند الفجر والغروب وبين — كما أشرت — الأسباب التى تسبب زيادة رؤية جسـم قرص الشمس والقمر عند اقترابهما من الأفق •

لهذا كانت قوانين ابن الهيثم قد أطلق عليها علماء الغرب قوانين (ديكارت) للانعكاس والانكسار والانحراف فى الضوء• واعتبر (هـ • شتر) أعمـال ابن الهيثم لها أكبر الأثر فى علم الضوء فى العصور الوسطى منذ عهد (روجر بيـكون) حتى (كبلر) • وفى عام ١٢٧٠ م أقر (فيتللو) فى كتابه (البصريات) بعبقريته ، وأثبت (الدوميلى) المستشرق المعروف أن العـالم (بيكام) قد اقتنص كتابه من كتاب (المناظر) لابن الهيثم ، كما اعترف (روجر بيكون) العـالم الشهير بأنه اقتبس عن ابن الهيثم واستعان بأبحاثه فى دراسـاته الكبرى عن الضـوء والبصريـات •

وسبق ابن الهيثم (اينشتين) فى نظرية (النسبية) عندما بين أن سرعة الضوء محدودة كما برهن على أن الضوء يسير فى خطوط مستقيمة عندما أجرى تجربته باختراعه (الغرفة المظلمة)

الذى جعل فى أحد جدرانها (ثقبا) يدخل منه الضوء ليقع على الجدار المقابل وهذه التجربة الهيثمية مازالت تجرى حتى اليوم للطلبة عند تدريس مادة الفيزياء للاستدلال بها على أن الضوء يسير فى خطوط مستقيمة • ونظرية هذه الغرفة كانت الأساس الذى وضع (ليونارد دافنشى) على أساسها فكرة آلة التصوير •

وابن الهيثم كان بارعا فى الرياضيات لأنها أساس علم المناظير • فنراه أول من طبق الهندسة فى علم المنطق عندما وضع كتابا ضمنه الأصول الهندسية والعددية كما ذكرها اقليدس وأبلونيوس ونوع فى الأصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين وضعها ، كما أدخل التحليل الهندسى فى الجبر والحساب، واستخدم الهندسة المستوية والمجسمة فى بحوث الضوء لتعيين نقطة الانعكاس فى المرايا الكروية أو الاسطوانية أو المحدبة أو المقعرة ، فقام بعدة أبحاث على (العدسات الاغريقية الحارقة) التى كان يصوبها الاغريق فى معاركهم البحرية على السفن لتجميع أشعة الشمس وتكثيفها فتحرق السفن التى كانت تصنع وقتها من الأخشاب • كما اكتشف قدرة هذه العدسات على التكبير وأشار باستعمالها لضعاف البصر للرؤية ، ولقد اعترف (ماير هوف) بأن ابن الهيثم اكتشف نظرية التكبير فى العدسات وأبحاثه فى هذا المجال اعتمد عليها

(روجر بيكون) و (فيتللو) البولندى و (ليونارد دافنشى) الايطالى و (يوهان كيلر) ، وهؤلاء أقطاب علم البصريات فى عصر النهضة الأوربية . وهذا ما جعل (بريستلى) فى كتابه (تاريخ الاكتشافات الضوئية) يقر بأن (فيتللو) نقل عن كتاب (المناظر) لابن الهيثم نظرياته ، وهذا ما جعل العالم البولندى (دلابورتا) يصف العالم البولندى الشهير (فيتللو) بأنه قرد مقلد لابن الهيثم ، وهذا ما جعل (سارتون) فى كتابه (تاريخ العلم) يصف ابن الهيثم بأنه أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الفيزياء فى العصور الوسطى ويعتبر من العلماء القلائل المشهورين فى العالم كله .

وابن الهيثم درس فى الهندسة المستوية آراء أرشميدس ودرس الفرضيتين الثانية والتاسعة فى كتابه (الكرة والاسطوانة) كما تناول (شكوك اقليدس) فى فرضيته الخامسة التى تدور حول القطع لخطين مستقيمين لخط ثالث مستقيم ، وضمن حلوله فى كتابه (حل شكوك اقليدس) . وهذا ما جعل الدكتور مصطفى مشرفة يصفه بأنه رياضى بحت بأدق ما يدل عليه الوصف من معنى وأبلغ ما يصل اليه من حدود .

وعلق ابن الهيثم على مسائل (أبولو نيوس) فى كتابه (المخروطات) ، كما علق على الرسومات المخروطية فى المسائل الرياضية ومن بينها تقاطع الدائرة والخطوط المتوازية الى

ما لا نهاية عندما يقطعها خط ثالث ، وهذه المشكلة استعصى على علماء الاغريق حلها وفطن ابن الهيثم الى حلها ، وحلها عندما توصل الى المعادلة الرابعة فى الجبر ، وهذه مسائل يفهم معضلاتها علماء الرياضة .

وفى الرياضيات اشتهرت مسألة ابن الهيثم الشهيرة وهى رسم مستيقمين من نقطتين مفروضتين داخل دائرة معلومة الى أى نقطة مفروضة على محيطها بحيث يصنعان مع المماس المرسوم من تلك النقطة على المحيط زاويتين متساويتين وطبق هذه النظرية على سقوط الضوء على المرآة العاكسة . وفى علم المثلثات قام بوضع نظرية ظل التمام لتحديد سمت القبلة ، وهذه النظرية ساهمت فى حل مسائل المثلثات الكروية .

من هنا نجد أن ابن الهيثم كعالم فيزيائى وبصرى ورياضى استطاع ترجمة آراء الفلاسفة حول الطبيعيات وحولها الى مفاهيم هندسية وهذا ساعده على كشف المعميات والمجاهيل الفيزيائية التى احتار فيها الفلاسفة من قبل عندما حاولوا تفسيرها عن طريق علم المنطق والرياضيات ، فقام بعبقريته بتفسير الفكر الفلسفى الاغريقى ورموزه بالرياضيات والبراهين والاستقصاء التجريبى .

وكان منهج ابن الهيثم العلمى على حد قوله هو : يبتدىء البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز

خواص الجزئيات ، وينتهى باستقراء ما يخص البصر فى حـال الابصـار وما هو مطرد لا يتغير وظـاهر لا يشتبه فى كيفيـة الاحسـاس ، ثم تترقى فى البحث والمقـاييس على التـدريج والتدريب مع انتقـاء المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما يجيزه وننتقده طلبا للحق الذى به يثاج الصـدر ونصل بالتدريج واللطف الى الغاية التى يقع عنـدها اليقين ، وتظهر مع النور والتحفظ الحقيقـة التى يزول معها الخـلاف وتنحسم بها مواد الشبهات •

ولابن الهيثم نظرية (الشك العلمى) التى أوردها فى كتابه (مقدمة الشكوك على بطليموس) فعبر عنها بقوله : حسن الظن بالعلماء السابقين البشر وانه كثير ما يقود الباحث الى الضلال ويعوق قدرته على كشف مغالطاتهم وانطلاقه الى معرفة الجديد من الحقائق • وما عصم الله العلماء من الذلل ولأهمية علمهم من التقصير والخلل ، ولو كان ذلك كذلك لمـا اختلف العلماء فى شيء من العلوم ولا تفرقت آراؤهم فى شتى حقائق الأمور •

ومن أخلاق ابن الهيثم كعالم أنه وجد فيما كتبه بطليموس (مواضـع مشبهة وألفاظا بشعة ومعانى متناقضة) ، ومع هذا أمسك عن التعليق عليهـا حتى لا يهضم بطليموس أو ينال من قدره أو يفترى عليـه فوصفه بأنه (الرجل المشهور بالفضيلة

المتفنن بالعلوم الرياضية) بل أنه وجد فى كتبه علوما كثـيرة ومعانى غزيرة كثيرة الفوائد عظيمة المنافع ، وهذه الاشـادة تبين سمة وأخلاق ابن الهيثم رغم تحفظاته على بعض ما فى كتب (بطليموس) التى أظهرها ولم يعلق عليها حتى يعطى لخلفائه فرصة لاصلاح ما بها وسد الخلل فيها •

وأخيرا ••• أصدق وصف لابن الهيثم ما قاله عنه العالم (سيدوه) بأنه لو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر (نيوتن) أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ، كما اضطر (كبلر) أيضا أن يبدأ أبحاثه فى علم الضوء من الصفر •

ابـــن يـــونس المصـــرى

جاليليـــو العـــرب

عاصر المتنبى وقابله فى بلاط كافور الاخشـــيدى وأعجب ببيانه وطلاقة لسانه • وابن يونس أصله يمنى من حمـــير وفد أهله الى مصر • وكانت له ميوله فى المطالعة فى مكتبـــة أبيـــه ولا سيما فى كتب الأولين الفلكية • وطـــالع أزياج الفزارى والخوارزمى والبتانى والفرغانى • كما طالع كتاب (المجستى) لبطليموس وكتاب (السدهانت) الهندى وهو كتاب فى الفلك •

وشهد عصره القـــلاقل السياســـية • فلقد كانت الدولة الاخشيدية على وشك الأفول وهذا ما جعله ينزح الى مدينـــة حلوان حيث أنشأ بها مرصـــده الخـــاص به • وأخـــذ يدقق الجداول الفلكية لسالفيه ولا سيما فلك قدماء المصريين الذى بهـــره •

واستطاع ابن يونس التنبؤ بكســـوف الشـــمس عام

٩٧٧ م — ٣٧٧ هـ • وخسوف القمر عام ٩٧٨ م — ٣٧٨ هـ •
وهذا ما جعل الخليفة الفاطمى العزيز بالله يطلبه وقدم له عطية
رفضها ابن يونس لأنه كان موسراً • لكنـه طلب منه تحويل
الجامع الأزهر الحديث البناء •• الى جامعـة يدرس به علوم
الدين والمذاهب الفقهية والفلك والطبيعة والرياضيات • وأخذ
يلقى محاضراته فى الفلك وعلوم الهيئة • وكان يتوجه مع طلابه
الى مرصـده بحلوان ليدربهم عليه • وكان ينفق عليهم من ماله
الخـاص •

وأبو الحسـن على بن يونس المصرى الذى توفى عـام
(١٠٠٠ م — ٣٠٩ هـ) وضع (الجداول الصغرى) ككتاب
شامل به هيئة سـماء مصر وقام فيه بحساب مواسم الزراعـة
والحصاد والفيضـان وكسوف الشمس وخسوف القمر حسب
الحسابات الفلكية الدقيقة وشاعت هـذه الجداول واشتهرت
بجداول ابن يونس •

وقام ابن يونس بتكليف من العزيز بالله بانشاء مرصـد
يفوق كل مراصد العالم القديم الا أنه أتمه فى عهد الحـاكم بالله
الفاطمى • لهذا أطلق عليه المرصد الحاكمى • وكان فوق جبل
المقطم وحشـد ابن يونس فيه كل العلماء المشهورين فى عصره
وكان من بينهم ابن الهيثم • واخترع به آلة (الموار) التى
أطلق عليها الخطار وهى عبارة عن فكرة البندول وكان يستعمله

ابن يونس فى قياس الأوقات بالساعة الدقيقة والثانية وتسجيل الوقت الذى يستغرقه النجم أو الكوكب منذ ظهوره واختفائه. وبهذا نجده قد سبق الفلكى الايطـالى الشهير (جاليليو) فى اكتشافه فكرة بندول الساعة وقد نقلها (جاليليو) فى القرن الـ ١٧ عن ابن يونس وهـذا ما أكده العالم (سميث) وهذا ما جعل دائرة المعارف البريطانيـة تشيد به فى عرضها لمـادة الفلك حيث اعتبرته عالمـا فلكيا شـهيرا له انجازاته الفلكيـة الرائدة ولا سيما عندما رصد خسوف الشمس عام ٩٧٧ . وربط هذه الظاهرة بسرعة حركة القمر . وبينت الدائرة حسابه لدائرة ميل البروج الذى كان من الدقة بحيث يتطـابق حاليا مع آلات الرصد الحديثة .

وشارك ابن يونس معاصره الحسن بن المهلبى فى رسـم خريطة للعالم أهدياها الى الخليفة الفاطمى العزيز بالله . ورسماها على قماش من الحرير التسترى وطرزاها بالخيوط من الذهب وكانت خريطة ملونة عليها الجبال والأقاليم والأنهـار والمدن والبحار والطرق . وجعلا مدينتى مكة والمدينة المنورة بارزتين فوق هذه الخريطة .

لقد صدق ابن خلكان عندما قال قولته الشهيرة : عجيب أمرك يا ابن يونس فلكى ومؤرخ وشاعر وعازف ومغن .

الادريسى

استرابون العرب

عالمنا عالم فى الجغرافيا من الطراز الأول وشهرته فيها فاقت انجازاته واهتماماته فى الطب والصيدلة وعلوم النبات ، وهو أحمد بن على بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسى الذى ينتهى نسبه الى على بن أبى طالب ويمتاز بانجازاته فى تصوير الخرائط الجغرافية وهذا العمل كان سببا فى شهرته حتى اليوم •

والادريسى ولد عام (٤٩٣ هـ – ١١٠٠ م) فى مدينة سبتة بالمغرب أصله من الأدارسة الذين حكموا المغرب الأقصى ، رحل الى بلاد الأندلس وطاف بشمال افريقيا وآسيا الصغرى ثم انتهى به المطاف وعاش فى كنف ملك صقلية (روجز) الثانى الذى كان قد احتلها من المسلمين ، وظل فى خدمة البلاط النورماندى الى أن توفى عام ٥٦٠ هـ – ١١٦٥ م •

والمسلمون اشتهروا فى علم الجغرافيا ، فلقد صنع البلخى أول أطلس عربى ألحق بكتابه (صور الأقاليم) وأطلق المسعودى على الخرائط التى صنعت أيام الخليفة العباسى المأمون (الصور المأمونية) الا أن خريطة الادريسى التى صنعها عام ١١٥٤ م هى الأثر الوحيد الهام فى علم (الكارتوجرافى) وهو علم تصوير الخرائط الجغرافية . وظلت خريطته هى المرجع الأساسى والوحيد لعلماء أوربا حتى القرن الرابع عشر ، لهذا نجدها الخريطة العلمية الوحيدة التى فشل علماء الخرائط أمثال بزالتو وهيتر فورد وماريو سبانوتو وايستانى مضاهاتها لأنهم اعتمدوا فى رسوماتهم على الأساطير وابتعدوا عن المعالم والناحية العلمية رغم أنهم جميعا كانوا يقلدون الخرائط الاسلامية بلا استثناء مع تغيير طفيف فيها ولا سيما وأن علماء الجغرافيا المسلمين كانوا يوقعون على خريطتهم بجعل مكة المكرمة مركز العالم ، وكان العلماء الأوربيون يبدلون فيها ليجعلوا بيت المقدس مكانها على الخريطة .

وظل الادريسى حوالى ١٦ عاما يؤلف كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ، وكان وقتها يعيش فى (بالرمو) بصقلية وفى هذا الكتاب كما يقول (دوزى) فى كتابه (وصف افريقيا وأسبانيا) وصف الادريسى ملوك وأمراء صقلية بأنهم عرب فى

ثقافتهم وحياتهم وفى طرق حكمهم ولباسهم وقصورهم ومعاشهم وحفـلاتهم •

ويمتاز كتاب الادريسى بأنه وضعه بعد ما جاب بلاد الأندلس وشمال افريقيا وجزيرة صقلية ، وكان الملك (روجرز) الثـانى قد كلفه بوضعه عام ٥٣٣ هـ ــ ١١٣٨ م وأرســل الادريسى العلمـاء فى بعثات استكشافيـة لتجميع المعلومات عن انجلترا وفرنسا وساحل بحر الشمال ودول اسكنديناڤيا وبولندا وألمـانيا وروسيا وبلاد البلقان فى شرق أوربا • وكانت مهمتهم التى كلفهم بها الادريسى تقصى هذه الأماكن ورصـد الجبـال والأنهـار والوديان والمعـالم والتضاريس الجغرافية فى هـذه البلدان ، وهذا ما جعل لكتابته أهمية كبرى ولا سيما الخرائط التفصيلية لهذه الأقاليم التى ألحقها بكتابه ، واستعان فى كتاباته ورسوماته بما كتبه الجغرافيون العرب أمثال المسعودى وابن حوقل وابن خردازبة وابن خاقان وغيرهم وهـذا ما أكده الادريسى نفســه فى كتابه • وزاد عليهم فى الاستعانة بالبعثـات الاستكشافيـة والمعلومات الغزيرة التى جلبوها اليه فقام بتصنيفها ولا ســيما وأن هؤلاء الرحالة كانوا علماء مؤهلين لهذا العمل •

وكان من دقة المعلومات التى أوردها فى كتابـه (نزهـة المشتاق) أن المستشرق الروسى (منيورسكى) حققها ولا سيما

عند وصفه لروسيا فى القرن العاشر واعتبرها المصـدر الدقيق الموثوق به مما جعل علماء الجغرافيـا الروس يعولون على معلوماته أهمية كبرى ، واعتبروها المـادة العلميـة الأصليـة ولا سيما وصفه لحوض نهر الدنيبر ومنابع نهر الديستر وأرض القرمان بالاتحاد السوفيتى .

ويمتاز كتاب الادريسى أيضا بأنه وصف الأقاليم السبعة (العالم القديم) ببحارها وبلدانها وجبالها وأنهارها وغلاتهـا وأجناسها وشعوبها ، كما تناول الوديان والسـهول والبحـار والخلجان والطرق والمسـالك البرية والمنـاخ ، ووصف المدن والقرى والطبيعة والتضاريس ، وهذا ما جعل لهذا الكتاب قيمة تاريخية فى الجغرافيا الاقتصادية والبشرية والمناخية ، ولا سيما وأنه جمع ما بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية .

واهتم الأوربيون بما كتبه الادريسى عن جغرافيـة أوربا وبلاد الأندلس ومدنها وأنهارهـا وأصقاعها لأنه كمـا يقول (كراتسكوفسكى) قد أعطى فى هـذا الكتاب معطيات وفيرة عن الغرب ولاسـيما عن فرنسـا وألمـانيا واسكتلندا وايرلندا وانجلترا ودول سـاحل بحر البلطيق وبولندا ورومانيا ودول البلقان ، ولأول مرة يصف جغرافى بحر البلطيق بدقة متناهيـة أذهلت المستشرق النمساوى (توماشك) ولا سيما فى حديثة عن

أحوال هذه الدول التجارية وطرق القوافل التجارية والمواصلات فيما بينهـا • فلأول مرة يكتب جغرافى عن هـذه البـلدان ومما ساعده غزارة المعلومات التى أتيحت له من البعثات التى ابتعثها الى هذه البلدان والأقاليم المجهولة • فنراه يطلق على انجلترا فى كتابـه (انكرطرة) وعلى الانجليز (الانكليسـة) ووصف انجلترا بأنها جزيرة عظيمة بها مدن كبيرة •

ولفت نظر المستشرق النمسـاوى (ماجيـك) ما كتبـه الادريسى عن المراكز التجارية الكبرى فى غرب افريقيا سـواء فى غانا أو سلا أو تكرور بمملكة مالى الاسـلامية وأهم من هذا وصفه لمنابع نهر النيجر بالسودان الغربى وأطلق عليـه (النيل الغربى) ووصف منابعه فى جبل القمر كما أطلق عليـه (نيل السودان) وهو بالطبع غير نهر النيل المعروف لأنه وصف مصبه غرب القارة الافريقية فى بحر الظلمات (الأطلنطى) عند جزيرة أوليك • وهذا الوصف الدقيق لحوض نهر النيجر بغرب افريقيا ولاسيما منطقة (تمبكتو) التى استهوت العالم الجغرافى (كابيك) عند حديثه عن (الجغرافيا فى العصـور الوسطى) فاستعان بكتـاب الادريسى لدقة معلوماته مما أثار اعجـاب الجغرافيين المعاصرين •

وفى الاكتشافات الجغرافية البحرية أورد الادريسى قصة فى غاية الأهمية حول المحاولات لاكتشاف العرب لبحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) فحكى قصة جماعة أطلق عليهم المغرورين وصلوا من لشبونة الأندلسية الى بحر غليظ الموج وكدر الروائح كثير القروش قليل الضوء . فأيقنوا بالتلف ثم فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر اليها . فقصدوا الجزيرة فنزلوا فوجدوا عين جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها ، وهذه القصة لفتت نظر الأوربيين الذين تشجعوا لاكتشاف المحيط الأطلنطى ولا سيما البرتغاليين. وقد علق المستشرق (كراتشكوفسكى) عليها فى كتابه (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) بأنها نبهت أذهان الغرب الى أهمية (بحر الظلمات) وما فيه من سكان وجزر وهذا ما حفز الأوربيين لاستكشافه .

وكتاب الادريسى هذا كان قد وضعه بتكليف من الملك النورماندى (روجرز) الثانى ليعرف مملكته التى كانت تضم جزيرة صقلية وأجزاء من البلاد الرومية أو على حد قول الادريسى : أراد معرفة موقع بلاده ومسالكها برا وبحرا

وما يحيط بها من البحار والخلجان وسط الأقاليم السبعة (العالم القديم) ، لهذا يمتاز هذا الكتاب كما وصفه (بالنثيا) بأنه مؤلف عن مشاهدة مباشرة لا مستخرج من الكتب ، لأن الادريسى استعان فى كتابته بعلماء أذكياء صاحبهم الرسامون لجمع المعلومات التى كان يتلقاها منهم ويسجلها أولا بأول ، لهذا حوى على معلومات صحيحة وبه مادة وفيرة عن البلدان الأوربية التى تسكنها شعوب مسيحية . وعلق عليه المستشرق الفرنسى (دى سلان) فى المجلة الآسيوية الفرنسية عام ١٨٤١ م بأنه كتاب لا يقارن به أى كتاب آخر سبقه . لأنه مازال دليلا للمؤرخين والجغرافيين فى الأمور التى تخص أجزاء كبيرة من العالم ، وهذا ما جعل دائرة المعارف الفرنسية تصفه بأنه أعظم وثيقة علمية جغرافية فى العصور الوسطى ، ووصفه المستشرق (زيبولد) بأنه أعظم مصنف جغرافى فى القرون الوسطى .

وكتاب (نزهة المشتاق) رسم به الادريسى الخرائط الداخلية لكل اقليم وعددها سبعون خريطة تفصيلية ، فقسم الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب الى جهة الشرق وجعل لكل قسم من الأقسام السبعين خريطة مفصلة خاصة .

وفى عام عام ١١٥٠ م رسم الادريسى (لوحة الترسيم) وهى خريطة جغرافية عامة صنعها من الفضة حتى لا تتلف

وحفرها الحفارون حسب ما خططهـا لهم الادريسى ، وكانت الخريطة على شكل مستطيل من الفضة أبعاده ٣ × ٢ر٤ مترا . لهذا كانت أكبر خريطة فى العالم وقتها . وكان موقعـا عليهـا ٢٠٦٤ اسما فى افريقيا وآسيا وأوربا (العـالم القديم) وفى أعلاها كان اتجـاه الجنوب على عكس الخرائط المعـاصرة . وقسم فيها العالم الى سبعة أقاليم عرضية وقسم كل اقليم الى عشرة أقسام وجعل خط الاستواء فى أعلى الخريطة ثم مد شريطا ضيقا من افريقيا بجنوب المحيط الهندى (بحر الزنج) لكنـه لم يصله بقارة آسيا من الشرق . وكانت الأقاليم العرضية التى قسم اليها العالم متساوية ما عدا الاقليم الأول الذى يقع جنوب مدار السرطان ، وأظهرعلى الخريطة الجبـال والأنهـار باللون الأخضر والجبـال بالأحمـر أو البنى أو الارجوانى حسـب ارتفاعاتها . ورسم المدن فى شكل دوائر ذهبية .

ولقد وصف (جومتيه) خريطة الادريسى العامة وملحقاتها من الخرائط التفصيلية بأنها ظلت الأطلس الجغرافى المصـور عن العالم لعدة قرون فى أوربا . لأنه تحـاشى فيها الأخطـاء التى وقع فيهـا بطليموس فى خرائطـة التى جـاءت بكتابـه (جغرافيا) . ولقد علق عليها عباس العقاد بقوله : ولا يعرف أن أحدا سـبق الادريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيـل العليـا . كمـا حفظت الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف

الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف (سان مرتين) الفرنسى ترسم النيل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء بعد أن تخبط الجغرافيون فى وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيردوت الملقب بأبى التاريخ •

وأشرف الادريسى على صنع الكرة الأرضية الفضية التى اشتهرت بالكرة الروجرية والتى نقش عليها خريطة الأرض • وقد وصفها الادريسى بقوله : أن الملك (روجرز) الثانى قد أمره عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة (كرة) منفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل رومى فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما ، فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وكان العمال قد جعلوا المعالم مفرغة من الداخل ومجسمة وبارزة واستعانوا فى صناعتها بلوح الترسيم •

ووضع الادريسى كتابه (أحسن التقاسيم) لوصف هذه الكرة الأرضية الفضية التى فقدت بعد وفاته وظل الكتاب متداولا حتى اليوم ، ويقال أن الثوار حطموها ابان ثورتهم واقتحامهم القصر الملكى ابان حكم ابن روجرز الثانى الملك غليوم ، وهذا ما أكده (كراتشكوفسكى) •

وكتابة الادريسى عن أوربا كانت مادة خصبة وثرية من

بعده للجغرافيين العرب الذين نقلوا عنه رغم تعصبهم ضـده حيث تجاهلوه فى كتاباتهم لأنه كان يعمل فى خدمة ملك نصرانى أزال الحكم الاسلامى من صقلية ، لكن مهما قيل أو يقال عنه الا أن انجازاته الكبرى فى الجغرافيا ولاسيما فى علم المصورات الجغرافية كانت تعتبر فى القمـة كما يقول المستشرق الفرنسى (ريسلر) ، فلقد جنى عليـه الجغرافيون العرب كمـا يقول (كاترمير) عندما تجاهلوه لظروف سياسية من بينها الحرب بين المسـلمين وصقليـة والحروب الصليبية فى الشـام ، الا أن الجغرافيين العرب كانوا يعتبرون كتابه (نزهة المشتاق) مصدرا أساسيالكل كتاباتهم ومن بينهم أبو الفداء وابن دقمـاق وابن الوردى وليون الافريقى وابن اياس وغيرهم .

كما امتـاز الادريسى فى رسم خرائطـه عمن سبقوه من الجغرافيين أمثال ابن حوقل والأصطخرى والمقدسى لأنه عين الأبعاد بين الأماكن ومواقع لبلدان بالنسبة للجهات الأصليـة الأربع (شرق وغرب وشمال وجنوب) لأنهم وجدوا مشقة فى تبيين هذه الأبعاد واكتفوا بوضـع الأماكن بالنظر الى الجهات الأربع دون تقدير الأبعاد وهـذا ما جعل المستشرق الايطـالى (الدوميلى) يصف خرائط الادريسى بأنها اعتنت بالجغرافيـا الرياضية بل اتسعت فيها دائرة الأقاليم كصـورة متكاملة عن العالم القديم فى زمانه . وأيده فى هذا المستشرق النمسـاوى

(مجيك) كما اعتبرها (كراتشكوفسكى) بأنها بلغت (الأوج)
فى فن رسم الخرائط لدى العرب .

وأول من اكتشف خريطة الادريسى الكبرى العلامة الألمانى (ميلر) ونشرها ملونة ومطبوعة عام ١٩٣١ م بعدما ترجم الكلمات الى الحروف اللاتينية .

واهتم العلماء بكتاب (نزهة المشتاق) اهتماما كبيرا فترجمة (جوبير) الى الفرنسية ونشر عنه المستشرق زيبولد بحثا عام ١٨٠٩ فى مجلة الاستشراق (زيدمج) واهتم بالكتاب المستشرق الألمانى (كارتمان) واستخرج منه المستشرق (دوزى) عام ١٨٦٤ م بليدن الجزء الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس ، كما أستخرج منه (روزن ميللر) عام ١٨٢٨ م الجزء الخاص بالشام وفلسطين واستخرج منه المستشرق الايطالى (آمارى) عام ١٨٨٥ م الجزء الخاص بايطاليا ، كما استخرج منه المستشرق الأسبانى (كوندى) عام ١٧٩٩ م الجزء الخاص بالأندلس ثم أعقبه المستشرق الأسبانى (سافدرا) عام ١٨٨١ م واستخرج منه علاوة على جزء الأندلس أجزاء فيها مصر والمغرب والسودان .

وهذا الكتاب ترجم الى اللاتينية والأسبانية والألمانية والروسية والفنلندية والفرنسية والايطالية والسويدية ، وكان قد ترجم عام ١٦١٩ م الى اللاتينية وترجمه (آميديه جوبير)

الى الفرنسية وبرندال الى السويدية ، وترجم (فاريتبارج) الجـزء الخـاص بفلسـطين والشـام الى الألمـانية ونشر (جيوبنول) المستشرق الهولندى الجزء الأول من الكتـاب ، ونشر (آمارى) خريطة صقلية كما صورها الادريسى •

واذا كان الادريسى اشتهر كجغرافى الا أنه وضـع كتابا فى النبات سماه (الجامع لصفات أشتات النبات) ومما سـاعده على كتابة هذا الكتاب أنه عاش بصقلية واطلع فى مكتباتهـا على أسماء النباتات باللغات الأخرى ، لهذا يضم هذا الكتاب أسماء هذه النباتات بالعربيـة والفارسية واليونانية واللاتينيـة والسيريانية والعبرية والهنديـة والكردية والتركيـة والقشتالية (الأسبانية) والبربرية وذكر فيه منافع كل نبات أو أجزاء منه أو ما يستخرج منه كالصمغ أو الزيوت ويصف فيه الأشـجار والثمار والأجزار الخضرية والأزهار ، كمـا ضـم فى كتابـه (الأدوية المفردة) منافع العقاقير الطبية من نبـات أو أجزاء النباتات أو أعضاء الحيوانات أو المعادن أو الأطيار وذكر فيه منافع كل مفرد (عقار) وهذا الكتاب مفقود •

وأخيرا أصدق وصف للادريسى الشـاعر ما قاله يصف غربته فى قوله :

ليت شـعرى أين قبرى ضـاع فى الغربة عمرى

وفعلا مازال قبره مجهولا حتى الآن •

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة



صدر من هذه السلسلة :

	العنوان	المؤلف
١	الكومبيوتر	تأليف د. عبد اللطيف أبو السعود
٢	النشرة الجوية	تأليف د. محمد جمال الدين الفندى
٣	القمامة	تأليف د. مختار الحلوجى
٤	الطاقة الشمسية	تأليف د. ابراهيم صقر
٥	العلم والتكنولوجيا	تأليف د. محمد كامل محمود
٦	لعنة التلوث	تأليف م. سعد شعبان
٧	العلاج بالنباتات الطبية	تأليف د. جميلة واصل
٨	الكيمياء والطاقة البديلة	تأليف د. محمد نبهان سويلم
٩	النهر	تأليف د. محمد فتحى عوض الله
١٠	من الكمبيوتر الى السوبر كمبيوتر	تأليف د. عبد اللطيف أبو السعود
١١	قصة الفلك والتنجيم	تأليف د. محمد جمال الدين الفندى
١٢	تكنولوجيا الليزر	تأليف د. عصام الدين خليل حسن
١٣	الهرمون	تأليف د. سينوت حليم دوس
١٤	عودة مكوك الفضاء	تأليف م. سعد شعبان
١٥	معالم الطريق	تأليف م. سعد الدين الحنفى ابراهيم
١٦	قصص من الخيال العلمى	تأليف د. رؤوف وصفى
١٧	برامج للكمبيوتر بلغة البيزيك	تأليف د. عبد اللطيف أبو السعود
١٨	الرمال بيضاء وسوداء وموسيقية	تأليف د. محمد فتحى عوض الله
١٩	القوارب للهواة	تأليف شفيق مترى
٢٠	الثقافة العلمية للجماهير	تأليف جرجس حلمى عازر
٢١	اشعة الليزر والحياة المعاصرة	تأليف د. محمد زكي عويس

٢٢ ـ القطاع الخـاص وزيادة الانتاج فى المرحلة القادمة	تاليف د٠ سعد الدين الحنفى
٢٣ ـ المريخ الكوكب الأحمر	تأليف د٠ منير أحمد محمود حمدى
٢٤ ـ قصـة الأوزون	تأليف د٠ زين العابدين متولى
٢٥ ـ قصص من الخيال العلمى ج ٢	تأليف رؤوف وصـفى
٢٦ ـ المـخدرة	تأليف د٠م ابراهيم على العيسوى
٢٧ ـ قصـة الرياضـة	تأليف عـلى بركـه
٢٨ ـ الملوثات العضـوية	تأليف محمد كامل محمود
٢٩ ـ ألوان من الطاقـة	تأليف عبد اللطيف ابو السعود
٣٠ ـ صور من الكون	تأليف زين العابدين متولى
٣١ ـ الحاسب الالكترونى	تأليف محمد نبهـان سويلم
٣٢ ـ النيـل	تأليف محمد جمال الدين الفندى
٣٣ ـ الحرب الكيماوية ج ١	تأليف دكتور احمد مدحت اسلام د٠ عبد الفتاح محسن بدوى د٠ محمد عبد الرازق الزرقا
٣٤ ـ الحرب الكيماوية ج ٢	تأليف دكتور احمد مدحت اسلام د٠ عبد الفتاح محسن بدوى د٠ محمد عبد الرازق الزرقا
٣٥ ـ البصر والبصـيرة	تأليف طلعت حلمى عـازر
٣٦ ـ السـلامة فى تـداول الكيماويات	تأليف د٠ سمير رجب سليم
٣٧ ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ١	د٠ طلعت الأعوج
٣٨ ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ٢	د٠ طلعت الأعـوج
٣٩ ـ التلوث المـائى ج ١	د٠ طلعت الأعـوج
٤٠ ـ التلوث المـائى ج ٢	د٠ طلعت الأعـوج

الرقم	العنوان	المؤلف
٤١	نعيش لنـاكل ام ناكل لنعيش	د. محمد ممتاز الجندى
٤٢	انـت والـدواء	صيدلى/ احمد محمد عوف
٤٣	اطـلالة على الكون	د. زين العابدين متولى
٤٤	من العطاء العلمى للاسلام	د. محمد جمال الدين الفندى
٤٥	مسـائل بيئيـة	تأليف رجب سعد السـيد
٤٦	البث الاذاعى والتليفزيونى المبـاشر ج ١	جـلال عبد الفتـاح
٤٧	البث الاذاعى والتليفزيونى المبـاشر ج ٢	جـلال عبد الفتـاح
٤٨	صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ١	تأليف محمود الجـزار
٤٩	صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ٢	تأليف محمود الجـزار
٥٠	جيولوجيـا المحـاجر	جيولوجى/ نور الدين زكى محمد
٥١	الاستشعار عن بعد ج ١	د. سراج الدين محمد
٥٢	الاستشعار عن بعد ج ٢	د. سراج الدين محمد
٥٣	الردع النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
٥٤	البترول والحضـارة	د. توفيق محمد قاسـم
٥٥	حضارات اخرى فى الكون	جـلال عبد الفتـاح
٥٦	دليـلك الى التفـوق فى الثانويـة	سـامية فخـرى
٥٧	التلوث مشكلة اليوم والغد	د. توفيق محمد قاسم
٥٨	انهيـار المبـانى	م. جرجس حلمى عـازر
٥٩	الوقت والتوقيت ج ١	عبد السميع سالم الهوارى
٦٠	الوقت والتوقيت ج ٢	عبد السميع سالم الهوارى

العنوان	المؤلف
٦١ – الجيولوجيا والكائنـات الحيـة	د. دولت عبد الرحيم
٦٢ – أسلحة الدمار الشـامل ج ١	د. جمال الدين محمد موسى
٦٣ – أسلحة الدمار الشامل ج ٢	د. جمال الدين محمد موسى
٦٤ – النقل الجـوى فى مصر ج ١	د. سراج الدين محمـد
٦٥ – النقل الجـوى فى مصر ج ٢	د. سراج الدين محمـد
٦٦ – قراءة فى مستقبل العالم	تاليف : كـلايف رايش
٦٧ – غدا القرن ٠٠٠٠ ٢١ ؟	رجب سـعد السـيد
٦٨ – الشـتاء النووى ج ١	د. جمال الدين محمد موسى
٦٩ – الشـتاء النووى ج ٢	د. جمال الدين محمد موسى
٧٠ – تاريخ الفلك عند العرب	د. محمـد امام ابراهيم
٧١ – رحلة فى الكون والحياة ج ١	صيدلى/ احمد محمد عوف
٧٢ – رحلة فى الكون والحياة ج ٢	صيدلى/ احمد محمد عوف
٧٣ – الصحـة المهنيـة ج ١	د. سـمير رجب سليم
٧٤ – الصحة المهنية ج ٢	د. سـمير رجب سليم
٧٥ – عـالم الحشيش ج ١	د. جمال الدين محمد موسى
٧٦ – عالم الحشيش ج ٢	د. جمال الدين محمد موسى
٧٧ – أهم الأحداث والإكتشافات العلمية لعام ١٩٩٥ م	محمـد فتحـى
٧٨ – النقل الجوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ١	د. سراج الدين محمد

العـدد القـادم :

رقم الايداع ١٣٤١١/١٩٩٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 5029 — 0

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة